الفصل الخامس

معرفة المسلمين عند الغرب

في عام ١٦٥٥ قام الجغرافي العثماني الرياضي "كاتب جلبي" بكتابة كتيب بعنوان "المرشد عن الأمور المحيرة في التاريخ اليوناني والروماني والمسيحي" [١] وفيه يشرح الأسباب التي دفعته لكتابة هذا الكتيب في مقدمته . لقد صار عدد المسيحيين كبيراً ، ولم يعودوا مقتصرين على ذلك الجزء من العالم المسكون ، ذلك الجزء الذي كانوا يعيشون فيه من قبل . وعلى الرغم من أن طوائف المسيحيين كانت طائفة واحدة ، فقد انتشروا وأصبح عددهم كبيرًا جداً حتى أنهم ذهبوا إلى مناطق عديدة من العالم . ولما عبروا بسفنهم عبر البحار الشرقية والغربية . . أصبحوا أسياداً لعدد من الدول .

ولم يكن في مقدورهم التعدي على الإمبراطورية العثمانية ، ولكنهم كسبوا انتصارات في العالم الجديد ، وانتشروا في موانئ الهند التي سيطروا عليها . وكذلك . . فقد اقتربوا من المناطق العثمانية . وفي مواجهة هذا الخطر المتفاقم . . فإن كل هذه التواريخ الإسلامية التي تقدم حول هذه الشعوب كانت واضحة الأكاذيب وكانت أساطير ملفقة . ولما كان الأمر كذلك . . فقد كان من الضروري التزود بمزيد من المعرفة والمعلومات ؛ حتى لا تكون الشعوب الإسلامية غير عارفة بجيرانها ، الذين يناصبونها العداء ، وكذلك حتى تكون الشعوب الإسلامية في مقدورها أن تنهض من نومها ، وأن تستيقظ من سباتها الذي سمح بالفعل لهؤلاء الملعونين بأن يستولوا على دول معينة من أيدي المسلمين ، ومن هنا أحالوا الأراضي الإسلامية إلى مواطن للكفر .

وللتزود بهذه المعلومات والمعارف . . فإن الجغرافي "كاتب جلبي" يقول إنه اعتمد على "الأطلس الأصغر" الإفرنجي ، وعلى أعمال أخرى كان قد ترجمها .

والجزء الأول من الكتاب مقدمة ويتكون من جزءين ، أحدهما حديث عام عن الدين المسيحي ، قائم على أعمال مكتوبة باللغة العربية ، كتبه النصارى الذين اعتنقوا الإسلام في العصور الوسطى ، صريحة العداء في الشكل العام وشديدة العداء في الغرض .

والجزء الثاني من المقدمة يمد القارئ بمعلومات عن النظم الأوروبية للحكومة . وقد قدم هذا في صورة مجموعة تعريفات بشروح لعدد من الألفاظ السياسية الأوروبية مثل لفظ "إمبراطور" و"ملك" الخ ، وتبع ذلك بالمراتب في الكنيسة والدولة ، تلك التي اهتم بتمييزها ، إنها تتضمن قداسة البابا والكاردينال والبطريارك والكونت ، بالإضافة إلى الألقاب العلمانية الأخرى . وينتهي جزء المقدمة بجملة مختصرة في اللغات أتت على النحو التالي : "هذه الفرقة المستنكرة" .

ويعلق "كاتب جلبي" على عدد كبير من اللغات الناطقة بالأوروبية والغموض المتبادل . ويتكون بقية الكتاب من تسعة فصول ، تتعلق بالباباوية والإمبراطورية وفرنسا وإسبانيا والدانمارك وترانسلفانيا والمجر وفينيسيا ومولدافيا ، ومن الواضح أن هذه هي الدول الأوروبية التي اعتقد "كاتب جلبي" أن من الضروري الانتباه لها . وتتكون المعلومات المعطاة من أقل من القوائم العددية للباباوات والحكام ، التي تخللت المقالة بأجزاء غامضة من معرفة كتابة مجهولة ومختلفة .

والنظام الحكومي الوحيد الذي نوقش في تفصيل معين ، هو ذلك النظام الخاص بمدينة فينيسيا ، وبالنسبة للدولتين فرنسا وإسبانيا . . فقد كان كذلك قادراً على التزود بقدر من المعرفة التاريخية والجغرافية المحدودة . وكان " كاتب جلبي" ذا نية حسنة ، ذلك أن كتاباته في الجغرافية وفن الخرائط تبرهن على ذلك ، وتدل على المجهودات التي قام بها للحصول على معرفة من مثل هذه المعارف التي كانت متاحة له . ولاشك في أنه كان على حق في وضعه للأدب المبكر الذي استمد منه أفكاره عن أوروبا ، ورأى فيه تقدماً جوهرياً كبيراً . وبالتأكيد فإن لم يكن هناك شيء قابل للمقارنة متاحاً في العربية

أو الفارسية حتى القرن التاسع عشر ، وكذلك فإن تقديمه متاحاً في العربية أو الفارسية حتى القرن التاسع عشر .

وكذلك فإن تقديمه للتاريخ الأوروبي والشئون الجارية الذي كتبه عام ١٦٥٥ يبدو ساذجاً وتافهاً ، إذا ما قورن بالتصور الأوروبي للعثمانيين . وقبل ما كتبه "كاتب جلبي" بأكثر من قرن في مقالته فإن القارئ الأوروبي كان تحت تصرفه قدر كبير من الأفكار التفصيلية الجيدة عن التاريخ العثماني والمؤسسات العثمانية بما في ذلك الترجمة ، التي تمت لكتابات بعض المؤرخين العثمانيين العظام الأوائل . ولم يكن الاهتمام الأوربي مقصوراً على الأتراك العثمانيين الذين عالجوا المشكلات الجارية ذات الأهمية .

ولقد اهتموا كذلك لفترة بالتاريخ المبكر والثقافة الأولى للإسلام ، وأنتجوا بالفعل أدباً شاملاً اشتمل على طبعات وترجمات لنصوص عربية بالإضافة إلى دراسات لتاريخ المسلمين وفكرهم ورسائلهم . وفي أيام "كاتب جلبي" كانت هناك بالفعل مناهج عربية ، في عدد من الجامعات الأوروبية الغربية ، ومثل جاكوب جوليوس في هولندا وإدوارد بوكوك .

في انجلترا . . كانوا يضعون أسساً للاستشراق الكلاسيكي ، ونحو نهاية القرن السابع عشر عندما أعد الفرنسي بارتلومي هربيلوت القاموس الشرقي . وهو قاموس حرفي خاص بالحضارة الشرقية ، كان قادراً على استغلال الكم الجوهري من الأدب المنشور في اللغة اللاتينية ، بالإضافة إلى عدد من اللغات العامية الأوروبية ، وجاء جزء من المعرفة عن طريق الأسرى الهاربين أو المحررين ، وجزء عن طريق المسافرين السياسيين أو التجاريين . ولكن هذه المعرفة زادت عن طريق جيل جديد من العلماء الذين كانوا يطبقون على دراسة اللغات والآداب الإسلامية ، الأساليب التي أتقنتها أوروبا لمعالجة ودراسة النصوص القديمة المنقوشة .

بالنسبة لكل ذلك لم يكن هناك شيء يقبل المقارنة من بعيد بين المسلمين ، حيث اقتصرت المعرفة ، سواء المتعلقة بفقه اللغة أو غيرها ، على آثار إيمانهم الخاص ، وقانونهم وأدبهم . ومع هذا كان هناك شيء معروف عند الغرب ، وقد يكون مجدياً أن ننظر إلى المصادر والمضمون الخاص "بالأكاذيب والخرافات" التي أدانها "كاتب جلبي" بمنتهى الشجاعة العدل .

وأول تقارير جدية في العربية حول أوروبا الغربية بقيت ، هي تلك التي ظهرت إبان القرن التاسع . لقد نهلوا بنهم من المصادر اليونانية ، وبصفة خاصة من جغرافية بطليموس ، ويبدو أن هذه الجغرافية قد ترجمت مرات عديدة إلى العربية . والنص الباقي عبارة عن نص تم في بداية القرن التاسع ، على يد الفيلسوف الرياضي الآسيوي المشهور محمد بن موسى الخوارزمي [٢] ، بترجمة بطليموس ولكنه أدخل في رؤيته عدداً من التصحيحات والإضافات المشتقة من المعرفة الجغرافية المتاحة للفرس والعرب . وكان هذا صحيحاً حتى بالنسبة للتفكير الأوروبي الغربي على الرغم من أن ذلك كان بعيداً عن أجزاء أخرى من العالم . ولسوء الحظ . . وضع الأوروبيون أسماء ، شوهت بطريقة بشعة في إحدى النقوش المتبقية ، إلى درجة أن بعض هذه الأسماء غير معروف ، أو لا يمكن التعرف عليه .

من هذه الترجمة وربما من بعض الأعمال الأخرى المترجمة - بما فيها الكتابات السورية علاوة على الكتابات اليونانية - كان العلماء المسلمون قادرين على الحصول على بعض الأفكار الخاصة بالشكل الجغرافي لأوروبا الغربية ، وكذلك الخاصة بأسماء بعض الأماكن .

وفي الحال بدأوا في تقديم أعمال جغرافية خاصة بهم ، وتلك الأعمال - على الرغم من أنهم كرسوا بصفة عامة مكاناً صغيراً لهذا المكان البعيد وغير المهم مثل أوروبا الغربية - فإنها لم تحقق على الرغم من ذلك انتشاراً تدريجياً للمعرفة [٣] .

وأول جغرافي مسلم وصل إلينا عمله ، هو بالتأكيد "ابن خرداذبه" [*] ، وهو الجغرافي الفارسي الذي كتب باللغة العربية نحو منتصف القرن التاسع . وكان موظفاً ورئيساً في مكتب بريد بالدولة ، مسئولاً عن وثائق الدولة وعن تناوب الخدمة ، وكتابة الكثير من الأدب الجغرافي الخاص بالإسلام في القرون الوسطى فقد كان على الأقل في جزء منه ، توحي به الاحتياجات ، وتفيد من ملفات الخدمة في العمل . لقد كان هذا الكتاب بطبيعة الحال متعلقاً أساساً بالحدود في ظل الحكم الإسلامي . ومع ذلك . . فقد أولى هذا الكتاب اهتماماً بالامبراطورية البيزنطية التي كان لها خدمة بريدية على علاقة بتلك ، التي في كاليفيت ، ويمدنا الكتاب بقدر مختصر عن الأجزاء والمناطق الأوروبية الأبعد .

"ويقول ابن خرداذبه " وقسمت الأرض المعمورة على أربعة أقسام ، فمنها أروفي وفيها الأندلس والصقالب والروم والفرنجة وطنجة وإلى حد مصر ولوبية وفيها مصر والقلزم ، والحبشة والبربر" ، وهذا التقسيم جاء في نصوص عربية قديمة أخرى ، ولكنها قليلة جداً ، تسجله المصادر اليونانية ويختص تماماً هذا التقسيم من الأدب الجغرافي الإسلامي وأوروبا ابن خرداذبه بهجاء "Uraga" تتكون من الأندلس (إسبانيا الإسلامية) والأراضي السلافية ، والرومانية والأراضي الإفرنجية والدولة من طنجة إلى حدود مصر [٤] .

وقد تعلم ابن خرداذبه نوعاً في إسبانيا المسلمة ، وهي جزء من دار الإسلام . وعن الدول الواقعة فيما وراء حدود المسلمين يقول: "ورمية وبرجان وبلدان الصقالب

(*) هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه ، الذي اعتنق جده الإسلام ، وكان أبوه سنة ٢٠١هـ (٨١٦م) والياً على طبرستان (الطبري، القسم الثالث ، ص ١٠١٤ وما بعدها) نشأ في بغداد حيث درس الموسيقى والأدب على إسحق الموصلي ، وتولى بعد ذلك البريد بنواحي الجبل (إقليم ميديا قديماً) وكان يكتب في سامراء بين سنتي ٢٣٠ و ٢٣٤هـ ، موظفاً في ديوان البريد المركزي :

١- كتاب المسالك والممالك .

٢- كتاب اللهو والملاهي .

٣- حديث عن أصل الموسيقى وفن الغناء والنغم ، ألقاه في مجلس الخليفة المعتمد .

٤- يذكر أبو العلاء المعري (رسالة الغفران ٢/ ٧٩ س٥) "طبقات المغنين" لابن خرداذبه . وتوفى في حدود سنة ٣٠٠ هـ (المترجم) .

والإبر شمالي الأندلس ، والذي يجيء من البحر الغربي الخدم الصقالب والروم الإفرنجيون واللمبرديون والجواري الروميات والأندلسيات وجلود الخز والوبر ، ومن الطيب الميعة ، ومن الصيدنة المصطكى ، ويقلع من قعر هذا البحر بغرب فرنجة البسذ bussadh وهو الذي تسميه العامة المرجان .

فأما البحر الذي خلف الصقالبة وعليه مدينة تولية . . فليس يجري فيه مركب ولاقارب ولا يجيء منه شيء ، وكذلك البحر الذي فيه جزائر السعادة لا يركب فيه ولايجيء منه شيء وهو غربي أيضاً" [٥] .

وكان هناك تجار يهود . . يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية ، وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً ، يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف" [٦] .

لقد أعطى التجار اليهود الذين تحدث عنهم ابن خرداذبه نهضة للأدب التعليمي ، وقد قامت محاولات عديدة للتحقق منهم وتوطينهم وتقدير أهميتهم . ويبدو كذلك، أنهم كانوا أصلاً من الشرق الأوسط وليسوا من الغرب .

وهناك فقرات متماثلة نجدها في كتابات اثنين آخرين من الجغرافيين المسلمين في ذلك الوقت . واحدة من هذه الفقرات لابن الفقيه [*] . (٩٠٣هـ) تتبع سلفه ، ولكنه أضاف التالي :

"والإقليم السادس فرنجة وأمم أخرى ، وفيه نساء من عادتهن قطع ثديهن وكيه في صغرهن لئلا يعظم"

أما الآخر فهو ابن رسته [**] (٩١٠هـ) ويخبرنا أيضاً بنفس القصة ، ولكنه يضيف تفصيلاً جديداً مثيراً :

(*) هو أبو بكر أحمد بن إسحق بن الفقيه الهمذاني ، ولد في المدينة الفارسية همذان ، وألف كتاب "البلدان" عقب وفاة الخليفة المعتضد سنة ٢٨٩ هـ (٩٠٢م).

(**) هو أبو علي أحمد بن عمر بن رسته كتب في أصفهان بعد سنة ٣٣٠ ، (٩٢٢م) موسوعة عنوانها "الأعلاق النفسية" يتناول الجزء السابع منها الجغرافيا .

"وفيه أيضاً من ناحية الشمال اثنتا عشرة جزيرة تسمى جزائر بريطينية Barayttiniya ثم يبعد من العمران فلا يعرف أحد كيف هو" [٨] .

وثلاثتهم جميعاً يذكرون اسم روما التي كان لديهم قصص أكثر غرابة يحكونها عنها . وفي القرن العاشر . . كانت هناك معرفة أكثر اتساعاً متاحة للفقراء المسلمين ، وكان أعظم كاتب جغرافي في زمنه هو المسعودي [*] (٩٥٦م) ، وتشتمل ملاحظاته عن شعوب أوروبا على أصداء أفكار جغرافية يونانية مع إضافات شيقة :

"وأما أهل الربع الشمالي ، وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في الشمال كالصقالبة والإفرنجة ومن جاورهم من الأمم . . فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها ؛ فغلب على نواحيهم البرد والرطوبة وتواترت الثلوج عندهم والجليد ، فقل مزاج الحرارة فيهم فعظمت أجسامهم وجفت طبائعهم وتوعرت أخلاقهم وتبلدت أفهامهم وثقلت ألسنتهم ابيضت ألوانهم حتى أفرطت فخرجت من البياض إلى الزرقة ورقت جلودهم وغلظت لحومهم ، وازرقت أعينهم أيضاً ، فلم تخرج من طبع ألوانهم وسبطت شعورهم ، وصارت صهباً لغلبة البخار الرطب ، ولم يكن في مذاهبهم متانة . وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة .

(*) هو أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ، ولد في بغداد ، وهو ينتمي إلى أسرة يرجع نسبها إلى عبد الله بن مسعود ، صاحب النبي ﷺ وكان أسلوبه الثقافة التي درج عليها الحديث في زمانه يتطلب منهم الرحالة إلى أهم حواضر الإسلام طلباً للحديث والعلم ، فلم يقنع المسعودي باقتفاء أثرهم ، بل دفعه تطلعه العلمي إلى تجاوز البلدان الإسلامية والتجوال فيما وراءها بحثاً عن أخبارها جمعها لمعارفها . وبعد أن طاف ببلاد فارس وكرمان ، وأقام في اصطخر سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥م ، ورحل إلى الهند فزار أولاً "ملطان" و "المنصورة" ثم مر "بكنباية" و "صيمر" فوصل إلى "سرنديب" في جزيرة "سيلان" ومن ثم أبحر مع رفقة من التجار إلى الصين ، ثم رجع أدراجه إلى "زنجبار" و "عمان" .
وبعد جولة قصيرة له في البلدان المحيطة ببحر الخزر ، نلتقي به سنة ٣١٤هـ / ٩٢٦م عند طبرية في فلسطين . وفي سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣ م طاف في أنطاكية وثغور الشام ثم رجع إلى البصرة ، وذهب بعد ذلك سنة ٣٣٤هـ إلى دمشق . وفي السنة عينها نزل بمدينة الفسطاط في شهر جمادي الآخرة سنة ٢٤٥ هـ/ ٩٥٦م ، وقيل سنة ٣٤٦هـ وله من مصنفاته :
١- كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة .
٢- كتاب الأوساط وهو مختصر من الكتاب السابق . ٣- كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر .
٤- كتاب التنبيه والإشراف . ٥- رسالة في إثبات الوصية لعلي بن أبي طالب .
٦- رسالة في أحوال الإمامة .

ومن كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائمية وتزايد ذلك فيهم الأبعد فالأبعد إلى الشمال . . .

وأما من كان خارجاً عن هذا العرض إلى نيف وستين ميلاً يأجوج ومأجوج وهم في الإقليم السادس فإنهم في عداد البهائم "[٩] .

ونفس المؤلف يعقب في عمل آخر ، ويقول:

"الإفرنجة والصقالبة واللومبارد والإسبان ويأجوج ومأجوج والترك والخزروبرجان واللان والجلالقة وغيرهم ممن ذكرنا ، ممن حل بالجربي وهو الشمال لا خلاف بين أهل البحث والنظر من الشرعيين ، أن جميع من ذكرنا من هؤلاء الأمم من ولد يافث بن نوح وهو الأصغر من ولد نوح ، فالإفرنجة أشد هؤلاء الأجناس بأساً وأمنعهم جنبة وأكثرهم عدة وأوسعهم ملكاً وأكثرهم طاعة ، إلا أن الجلالقة أشد من الإفرنجة بأساً وأعظم منهم نكاية ، والرجل من الجلالقة يقاوم عدة من الفرنجة .

وكلمة الإفرنجة متفقة على ملك واحد لا تنازع بينهم في ذلك ولا تحزب ، واسم دار مملكتهم في وقتنا هذا بريزة ، وهي مدينة عظيمة ، ولهم من المدن نحو من خمسين ومائة مدينة غير العمائر والكور "[١٠] .

من خلال هذه الكتابات الجغرافية وتلك العربية والفارسية لهذا الزمن . . فإنه من الممكن تكوين صورة عن الشكل الأوروبي كما كان يبدو لعيون المسلمين . وإلى الشمال من الأراضي المتحضرة في الأندلس الإسلامية ، في جبال شمال إسبانيا وتلال بايريني المجاورة كانت هناك شعوب بدائية مسيحية غير متحضرة هي شعوب الغال وسكان جبال البرانس . وفي إيطاليا ، شمال المناطق الواقعة تحت سيطرة المسلمين ، كانت حدود روما ، التي يحكمها ملك قس يدعى البابا ، ووراء ذلك في الدولة التالية توجد طائفة من الشعوب الهمجية تدعى لومبارد . وعند الحدود الشرقية للبحر الأبيض في الشمال من الحدود الإسلامية كانت مملكة الروم ، الإمبراطورية اليونانية المسيحية ، ووراء ذلك كانت أراضي سلافيا الواسعة مجالاً هائلاً مقسمًا إلى شعوب عديدة ، بعض هذه

الشعوب كان معروفاً للمسلمين التجار والمسافرين ، وغرب سلافيا كانت المملكة الواسعة Franja فرنجا ، وهي أرض الفرنجة التي تصل كل المسار إلى الحدود الشمالية للألب والبايريني وبين هذه السلطات ، ومن بعضها بالتحديد تميز شعب آخر يدعى البورجان أو بورجوند ، ثم بالاتجاه أكثر إلى الشمال فيما وراء الإفرنج . . كان هناك عبدة النار المجوس ، وهو اللقب والصفة التي نقلها العرب تماماً من الفرس القدامى إلى الاسكندنافيين[11] والقاب قليلة لتلك الأراضي الأبعد شمالاً ، ولا تظهر في الكتابات الإسلامية بريطانيا ، وأحياناً أيرلندا وكذلك اسكندنافيا .

ومن وقت لآخر استخدم المؤلفون المسلمون لفظ الروم (Rüm) لأوروبا الوسطى والغربية ، ويجعلونه بذلك يتطابق في شكل جامد مع المسيحية . ومع ذلك . . فإن الأوروبيين الغربيين شاع أكثر تعريفهم بمجموعة ألقاب مختلفة أكثر هذه التسميات شيوعاً هو إفرنج Ifranj أو فرنج Firanj وهي الصورة العربية لإسم الإفرنج . وربما وصل هذا الإسم إلى المسلمين عن طريق بيزنطة ، وأطلق أساساً عندهم على سكان الامبراطورية الغربية إمبراطورية شارلمان ، وبعد ذلك امتد إلى الأوروبيين بصفة عامة هذا الإسم . وفي استخدام العصور الوسطى . . لم يكن مطبقاً بطريقة عادية على المسيحيين الأسبان أو الشعوب الإسكندنافية ، ولكنه استخدم على الرغم من ذلك بمعنى شامل عام لقارة أوروبا والجزر البريطانية ، وكانت أرض الإفرنج معروفة في اللغة العربية فرانجا (Franja) أو إفرنجا (Ifranja) وفي اللغة الفارسية ، وكانت معروفة بعد ذلك في اللغة التركية باسم فرانجستان .

وهناك لقب يستخدم أحياناً في نصوص العصور الوسطى ، يشير إلى شعوب أوروبا ، وهو بنو الأصفر التي تعني "أبناء الرجل الأصفر" . في البداية أطلق هذا المصطلح عند العرب القدماء على اليونانيين والرومانيين ، ثم امتد فيما بعد إلى أمم إسبانيا ، ثم أطلق بعد ذلك على الأوروبيين بصفة عامة . واستمد علماء الأنساب المسلمون عادة هذا الاصطلاح من اسم شخص هو أصفر ، وهو الابن الأكبر اسو وأبو روميل سلف اليونانيين والرومان (الروم) . وبعض العلماء شرح هذه التسميات باعتبارها

تشير إلى اللون الفاتح لجلد الأوروبيين ، أي اللون الأصفر ، والأشقر الذي كان على العكس من اللون البني والأسود في آسيا وأفريقيا . وهذا الأمر لا يبدو متشابهاً . فالمؤلفون العرب والفرس عادة ما يسمون البيض بيضاً وليس صفراً ؛ علاوة على ذلك . . فإنهم نادراً ما يتحدثون عن الأوروبيين بألقاب الجنس أو اللون . ولما كانوا عارفين بالتناقض بين أنفسهم وجيرانهم ذوي البشرة السوداء إلى الجنوب والشرق ، فقد أعطوا أهمية قليلة جداً إلى البشرات الأفتح نوعاً ، تلك التي يتميز بها جيرانهم في الشمال . وهناك استدلال آخر ، عادة مهين لذوي اللون الأبيض من الأجناس الشمالية ، بما فيها تركيا وشعوب الاستبس الأخرى أكثر من الإفرنج . في العصور العثمانية كانت تسمية بنو الأصفر تستخدم أحياناً للشعوب الصقلية من أوروبا الوسطى والشرقية ، ولكنها استخدمت بصفة خاصة للروس الذين يدعى أحياناً قيصرهم بالملك الأصفر [١٢] .

ما هي مصادر معرفة المسلمين عن الغرب ؟ المصادر الأوروبية التي استخدموها كانت بصفة رئيسة يونانية ، مع بعض الإضافات القليلة من المصادر السورية والفارسية ، وبالتأكيد . . لم يتعلموا كثيراً من الكتب الغربية ، وعلى قدر ما نعرف . . فإن كتاباً غربية واحداً ترجم بالفعل إلى اللغة العربية في العصور الوسطى . وكتاب أو كتابان يمكن أن يكونا قد صارا معروفين بوسائل غير مباشرة ، وهكذا يقدم المسعودي قدراً مختصراً عن ملوك الإفرنجة من كلوفس إلى لويس الرابع ، ويقول إنه يعود إلى كتاب أسقف إفرنجي في عام ٩٣٩م لمعرفة الحكم أمير قرطبة .

قال المسعودي : "ووجدت في كتاب وقع إليّ بسفسطاط مصر ، سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، أهداه غدمار الأسقف بمدينة جرندة من مدن الإفرنجة ، في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة إلى الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، ولي عهد أبيه عبد الرحمن صاحب الأندلس في هذا الوقت المخاطب في عمله بأمير المؤمنين ، أن أول ملوك الإفرنجة قلودويه وكان مجوسياً فتنصرته امرأته وكان اسمها غرطلد .

ثم ملك بعده ابنه لزريق ، ثم ولى بعد لزريق ابنه دقو برت ، ثم ولى بعده ابنه لزريق ، ثم ولى بعده قرلمان أخوه ، ثم ولى بعده ابنه قارله ، ثم ولى بعده ابنه قارله ، ثم ولى بعده ابنه بيين ، ثم ولى بعده ابنه قارله وكانت ولايته ستاً وعشرين سنة ، وكان في أيام الحكم صاحب الأندلس وتدافع أولاده بعده ، ووقع الاختلاف بينهم حتى تفانت الإفرنجة ، بسببهم ، وصار لزريق بن قارله صاحب ملكهم فملك ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر ، وهو الذي أقبل إلى طوشة فحاصرها . ثم ملك بعد قارله بن لزريق ، وهو الذي كان يهادي محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وكان محمد يخاطب بالإمام، وكانت ولايته تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر ، ثم ولى بعده ابنه لزريق ستة أعوام ، ثم قام عليه قائد للإفرنجة ، يسمى قومس فملك الإفرنجة وأقام في ملكهم ثماني سنين وهو الذي صالح المجاس عن بلده سبع سنين ، بستمائة رطل ذهب وستمائة رطل فضة ، يؤديها صاحب الإفرنجة ، إليهم ثم ولى بعده قارله بن تقويرة أربع سنين ، ثم ولى بعده قارله آخر فمكث إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ، ثم ولى بعده لزريق بن قارله وهو ملك الإفرنجة إلى هذا الوقت وهو سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، وقد استوفى في مملكته عشر سنين إلى هذا التأريخ على حسب ما نمى إلينا من خبره "[١٣] .

ومن بين ١٦ اسماً في قائمة المسعودي كانت العشرة أسماء الأخيرة من شارل مارتل إلى لويس الرابع التي يمكن التأكد منها والتحقق منها نوعاً . وبين الست أسماء الأولى كلوفيس وزوجته كلوتيلد وابنه العظيم داجوبرت لصعوبة فيهم . أما بقية الأسماء فمن غير الممكن التحقق منها بين حكام مير وفنجينا وكارولنجيا.

وأهمية الفقرة مع ذلك لا تنصب على القائمة الفعلية بالأسماء التي تعج بالأخطاء والحذف . وإنما تنصب على وجودها . والتأريخ الكلاسيكي للعالم الإسلامي يتميز بالأهمية والخطورة وربما بصورة أوضح من كل الدول في أوروبا في العصور الوسطى مجموعة ، وفي مستوى أعلى من الفلسفة . إنها مميزة بأنه على الرغم من المواجهة الطويلة بين الإسلام والمسيحية عبر البحر المتوسط من إسبانيا ، ومن خلال صقلية إلى

البلاد الواقعة في شرق البحر المتوسط . . فإن هناك نقصاً كبيراً في الاهتمام والانشغال بين العلماء المسلمين بما كان يجري وراء الحدود الإسلامية في أوروبا . ومن أول حقبة الألف عام . فإن ثلاث كتابات فقط هي التي بقيت وتمد القارئ المسلم بأي معرفة عن تاريخ أوروبا الغربية . وقائمة المسعودي هي أولها .

إذا كان تأريخ أوروبا الغربية مهملاً تماماً تقريباً . . فإن جغرافية أوروبا الغربية استمرت تلقي بعض الانتباه . إن معرفة المسلمين هي التي كرست جل الاهتمام للجغرافية ، وقدمت أدباً غزيراً في هذا الموضوع . وبداية بالأشياء الملائمة ذات الأهمية من الأعمال اليونانية فقد أثرى هذه المعرفة عدد من كتب الرحالة ، وبالفعل فقد قدم العلماء المسلمون كتابات قضايا نظامية ، بعضها في صورة مقالات في الجغرافية ، والبعض الآخر خاص بالقواميس الجغرافية الأبجدية . وقد تضمنت هذه في الغالب بعض الأسماء الأوروبية .

وكان اسم "روما" العظيمة بطبيعة الحال معروفاً للعالم الإسلامي ، حيث كان مع ذلك تختلط معه بيزنطة ، التي شاع أن يطلق عليها كلمة "الروم" .

بعض العلماء مع ذلك كانوا عارفين "بروما" في إيطاليا أيضاً ، ومؤلف عربي قديم اقتبس اقتباساً طويلاً من هارون بن يحيى ، وهو أسير عربي يبدو أنه قضى فترة قصيرة في روما حوالي ٨٨٦ . ويصف هارون المدينة والكنائس في عبارات خيالية ، ويستمر إلى أن يقول :

"ومن هذه المدينة تركب البحر فتسير ثلاثة أشهر . . حتى تنتهي إلى بلاد ملك برجان ، وتسير منها في جبال وعقاب شهراً واحداً ، حتى تنتهي إلى بلاد فرنجة ، ومنها تخرج فتسير أربعة أشهر ، حتى تنتهي إلى مدينة بريطينية وهي مدينة كبيرة على ساحل بحر المغرب ، ويتملك عليها سبعة من الملوك ، وعلى باب مدينتها صنم إذا رام الغريب أن يدخلها نام فلا يمكنه دخولها حتى يأخذه أهل المدينة فيقفوا على مغزاه ومقصده في دخول المدينة ، وهم قوم نصارى ، وهم آخر بلاد الروم ، ليس وراءهم عمران" [١٣] .

ومن الواضح أن هـارون لم يغامر إلى أبعـد من روما . ومن الشيق أنـه سمع عن بريطانيا وعن الحكم السباعي (*) heptarchy الانجلوساكسوني - وكان قادراً حتى على إعطاء ما هو أول تفكير لعمليات هجر الإنجلوساكسون ، وكانت معرفته مع ذلك خارج التاريخ منذ توقفت حكومة السبعة عن الحكم ، الذي امتد حوالى ٣٠ سنة .

وكثير من معرفة هارون عن روما أتى بوضـوح من مجموعات قصص روما الرائعة التي نسوق مثالاً عليها التيار الذي كان في أدب العصور الوسطى . بعض هذه القصص جمعها ابن الفقيه ، ووضعها ياقوت ، وهـو واحد من أعظم الجغرافيين المسلمين ومات ١٢٢٩ . وكانت لياقوت شكـوك خطيرة حول بعض القصص التي يـكررها ويعيدها . وفي القاموس الجغرافي يبدأ الدخول إلى روما على النحو التالي :

"رومية Rümiya بتخفيف الياء من تحتها نقطتان كذا قيده الثقات . قال الأصمعي: (فقيه مشهور) : وهو مثـل انطاكية وأفامية ونيقية وسالوقيه وملطية وهو كـثير في كلام الروم وبلادهم ، وهناك روميتان : إحداهما بالروم والأخرى بالمدائن بنيت وسميت باسم ملك فاما التي فـي بلاد الروم ، فهي مدينة رياسة الروم وعلمهـم ، قال بعضهم : هي مسماة باسم رومي بن رومية ، واسمها رومانس ؛ فعرب هذا الإسم فسمي من كان بها رومي ، وهي شمالي غربي القسطنطينية ، بينهما مسيرة خمسين يوماً أو أكثر وهي اليوم بيد الإفرنج ، ملكها يقال له ملك ألمان ، وبها يسكن البابا .

ورومية من عجائب الدنيا بناء وعظماً وكثرة خلق ، وأنا من قبل أن آخذ في ذكرها أبرأ إلى الناظر في كتـابي هذا ، مما أحكيه من أمرها . . فإنها عظـيمة جداً خارجة عن العادة مستحيلة وقوع مثلها ، ولكني رأيت جماعة ممن اشتهروا برواية العلم قد ذكروا ما نحن حاكوه فاتبعناهم في الرواية ، والله أعلم" (١٥) .

وبعد هذه الوثيقة المهمة أو قل الوثيقة التعليمية . . يقتبس ياقوت بنهم من روايات

(*) مجموعة من سبع مقاطعات أو ممالك متحالفة ، يحكم كلاً منها حاكمها الخاص (المترجم).

العصور الوسطى - ومعظمها - ربما من أصل أوروبي - عن عجائب ومعجزات روما ، ثم ينتهي إلى الآتي :

"جميع ما ذكرته ههنا من صفة هذه المدينة فهو من كتاب محمد ابن أحمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه ، وليس في القصة شيء أصعب من كون مدينة تكون على هذه الصفة من العظم ، على أن ضياعها إلى مسيرة أشهر لا يقوم مزروعاتها بمبرة أهلها ، وعلى ذلك فقد حكت جماعة عن بغداد أنها كانت من العظم وكثرة الخلق والحمامات ما يقارب هذا ، وإنما يشكل فيه أن القارئ لهذا لم ير مثله والله أعلم ، فأما أنا فهذا عذري على أني لم أنقل جميع ما ذكروا وإنما اختصرت البعض [١٦] .

ومن السهل أن تتعاطف مع وجهة نظر ياقوت . إذ إن معظم الأوصاف الإسلامية في العصور الوسطى لأوروبا الغربية مستمدة مباشرة ، أو عن طريق غير مباشر من الفكرة التي قدمها السفير إبراهيم بن يعقوب في منتصف القرن العاشر . ولابد أن مثالين يكفيان عن أوصاف ابن يعقوب :

ايرلنده جزيرة في شمال الإقليم السادس وغربية ، قال العذري : ليس للمجوس قاعدة إلا هذه الجزيرة في جميع الدنيا ، ودورها ألف ميل أهلها على رسم المجوس وزيهم ، يلبسون برانس قيمة الواحد منها مائة دينار ، وإنما أشرافهم فيلبسون برانس مكللة باللآلئ .

وحكي أن في سواحلها يصيدون فراخ الأبيلنيه ، وهو نون عظيم جداً ، يصيدون أجزاءها يتأدمون بها وذكروا أن هذه الأجزاء تتولد في شهر أيلول ، فتصاد في تشرين الأول والثاني ، وكانون الأول والثاني ، في هذه الأشهر الأربع ، وبعد ذلك يصلب لحمها فلا يصلح للأكل .

أما كيفية صيدها . . فقد ذكر العذري أن الصيادين يجتمعون في مراكب ومعهم فشيل كبير من حديد ذي أضراس حداد ، وفي الفشيل حلقة عظيمة قوية ، وفي الحلقة حبل قوي ، فإذا ظفروا بالجرو صفقوا بأيديهم وصوتوا ، فيتلهى الجرو بالتصفيق

ويقترب من المراكب مستأنساً به ، فينضم أحد الملاحين إليها ويحك جبهته حكاً شديداً فيستلذ الجرو بذلك ، ثم يضع الفشيل وسط رأسه ويأخذ مطرقة من حديد قوية ، ويضرب بها على الفشيل بأتم قوة ثلاث ضربات فلا يحس بالضربة الأولى وبالثانية ، والثالثة يضطرب اضطراباً شديداً ، فربما صادف بذنبه شيئاً من المراكب فيعطبها ، ولا يزال يضطرب حتى يأخذه اللغوب . ثم يتعاون ركاب المراكب على جذبه حتى يصير إلى الساحل . وربما أحست أم الجرو باضطرابه فتتبعهم ، فيستعدون بالثوم الكثير المدقوق ، ويخوضون به الماء فإذا أشمت رائحة الثوم استبعدتها ورجعت القهقري إلى الخلف ، ثم يقطعون لحم الجرو ويملحونه ولحمه أبيض كالثلج وجلده أسود كالنعش [١٧] .

إن فكرة ابن يعقوب عن صيد الحيتان في البحر الأيرلندي ، يتضح أن لها قاعدة موضوعة ، وهي تكشف عن معرفة أن الحيتان لها أمهات تصاد بالرماح . ومع ذلك فهناك مجالاً للشك حول ما إذا انطلق بحراً في إيرلندا وفكرته هذه قديمة ومستهلكة . ومن الواضح أن وصفه لبوهيميا من ناحية أخرى قائم على تجربة مباشرة : "بوهيميا هذه أرض الملك بويسلاف يتطلب امتدادها من مدينة براج إلى مدينة كراكاو رحلة أسابيع ثلاثة ، ويعادل مشوارها في طوله أرض الأترك .

بنيت مدينة براج من الطوب والجير ، وكانت واسعة التجارة ، ذات غنى يربو على كل هذه الأراضي . وكان الروس والسلافيون يجلبون البضائع إلى هنا من كراكاو ، ويجلب المسلمون واليهود والأتراك كذلك البضائع من أرض الأتراك ، وكانوا يجلبون العبيد والحديد وأنواعاً مختلفة من الفرو . وكانت بلدهم هي أفضل البلاد بين شعوب الشمال وأغناها في علف الدواب ، وكان مقابل بنس واحد تباع كمية كافية من الدقيق تكفي الإنسان شهراً . وبنفس المبلغ يباع الشعير لغذاء الحيوانات مدة أربعين ليلة . وكانت تباع دجاجات عشر ببنس واحد ، وفي مدينة براجوي . . كانوا يصنعون البرادع والتروس والدروع ، الجلدية الرقيقة التي تستخدم في هذه الأجزاء . وفي أرض بوهيميا كانوا يصنعون المناديل الرقيقة الجميلة الشبكية المزينة بالهلال ، التي لا تستخدم لشيء

وكان سعر عشرة منـاديل هناك بنساً واحداً ، وكانوا يتاجرون كل مـع الآخر ويتعاملون كل مع الآخر ، ويملكون أواني يعتبرونها كـالأموال وأعني الأشياء تشترى بها ، القمح والعبـيد والخيول والذهب والـفضة وكل شـيء . ويميز شعب بـوهيميا الشـعر الأسود الداكن ، ويندر الجنس الأشقر بين هذا الشعب [١٨] .

لقد وضع الغزاة الصـليبيين والمسلمين والغربيين في تـقارب شديد واتصال قوي ، سواء في الـسلام أو الحرب . وفي هذه الفـترة يتوقع الإنـسان أن تكون لدى المسـلمين تفاصيل أكثر ومعرفة أكثر دقة عن جيرانهم المسيحيين الأوروبيين ، ومعرفة أكثر جوهرية عن التقاريـر الغامضة والشائعات ، وتـصورات الزمن القديم . ومن المؤكـد أن مسلمي القرون الثانـي عشر والثالث عشر والرابـع عشر ، قد عرفوا أكثر عن الـغرب ، بشكل يفوق أسلافـهم في الفترة الـسابقة على الصـليبيين . ولكـننا ما زلنا لا نـقدر إلا على الدهشـة إزاء قلة ما عـرفوه في واقع الأمـر ، وكذلك إزاء قلـة ما اهتمـوا به . وأحد الجغرافيين العظماء في ذلك العصر وهو الفارس زكريا بن محمد القزويني [*] (١٢٨٣) يعتمد أساساً على ابن يعقوب في فـكرته عن أوروبا ، وفي واقع الأمر إن الفضل يعود إليه في بقاء رواية ابن يعقوب . وعن الإفرنج يقول الآتي :

"أفرنجة بلـدة عظيمة ومملـكة عريقة في بلاد الـنصارى بردها شديـد جداً وهواؤها غليظ لـفـرط البرد . وإنها كثـيـرة الخيرات والفواكـه والغـلات ، غزيرة الأنهار كـثـيـرة الثمار ، ذات زرع وضرع وشجر وعسل ، صيودها كـثيرة الأنواع ، بها معادن الفضة ، وتضرب بها سيوف الهند .

(*) القزويني (١٢٠٣ - ١٢٨٣م) هو زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، يرجع نسبه إلى أنس بن مالك إمام المدينة وفقيهها المشهور . ولد في قزوين وإليها نسب ، ثم رحل إلى دمشق ، وهو شاب ، وتولى بعدئذ قضاء واسـط والحلة في زمن المستعصم العبـاسي ، آخر خلفاء بني العباس في بغداد ، وسقطت بغداد في يد هولاكو المغولي ، وهو في ذلك المنصب ، كان عالماً في التاريخ الجغرافيا ، وكتابه عجائب المخلوقات أول كتاب في هـذا الموضوع في اللغة العربية ، وتتـصل آثار القزويني كلها بعلـمي الجغرافية ووصف الكائنات ، ويساوي كتابه "آثار البلاد وأخبار العبـاد" في قيمته كتابه عجائب المخلوقات ؛ فقد جمع فيه كل ما وقع له وعرفه وسمع به وشاهده من لطـائف صنع الله وعجائب كلمته المودعة في بلاده وعباده . (المترجم) .

وأهلها نصارى . ولهم ملك ذو بأس وعدد كثير وقوة ملك ، له مدينتان أو ثلاث على ساحل البحر من هذا الجانب في وسط بلاد المسلمين ، وهو يحميها من ذلك الجانب ، كلما بعث المسلمون إليها من يفتحها يبعث هو من ذلك الجانب من يحميها وعساكره ذوو بأس شديد لا يرون الفرار أصلاً عند اللقاء ، ويرون الموت دون ذلك [١٩] .

ولاشك في أن جزءاً من ذلك يأتي من كاتب أقدم ، ربما كان ابن يعقوب ولكن الجزء المتأخر بإشارته إلى ممتلكات الإفرنجة "في وسط أراضي" والدليل القاطع الذي يسوقه هذا الجزء على قوة الأسلحة الإفرنجية يبدو أنه يرجع تاريخه إلى زمن الصليبيين . وملاحظات القزويني جديرة بأن تعكس الانطباعات الناتجة من الاتصال المباشر ، إنها شيء مختلف تماماً عن روايات الرحالة والأساطير والشذرات المنقحة من التعليم اليوناني ، الذي شغل أفكار الغرب الأولى .

وكانت هناك معرفة متاحة نوعاً في الغرب الإسلامي ، في شمال أفريقيا وأسبانيا ، حيث وضع تقدم الغزو المسيحي المسلمين في اتصال مقرب - ولو أنه غير مرحب به - مع أوروبا . وهناك جغرافي من القرن الثاني عشر يدعي الزهري ، ربما كان يكتب في إسبانيا يتحدث عن البندقية وأمالفي وبيزا وجنوة مع بعض الملحوظات عن تجارها ومنتجاتها . ويذكر عن جنوة أنها "واحد من أعظم المدن الرومانية والإفرنجية وشعبها كان قريش الرمان" ولما كانت قريش القبيلة المكية التي ينتمي إليها النبي ﷺ هي أشرف القبائل العربية فإن هذا الوصف مبالغ فيه .

وهذا ليس هو كل شيء ؛ فالزهري يستمر في حديثه إلى أن يصل إلى أن أهل جنوة ينحدرون عن قبيلة عربية تعتنق المسيحية هي قبيلة غسان ، كانت تعيش على الحدود السورية العربية قبل ظهور الإسلام . "وهؤلاء الناس لا يشبهون الرومان في مظهرهم ؛ فغالبية الرومان يتميزون بالجمال ، أما هؤلاء فإنهم يتميزون باللون الأسود والشعر المجعد والأنف الشامخة . وهذا هو السبب في القول بأنهم ينحدرون من العرب " [٢٠] .

في تلك الأثناء كتب مسلم غربي آخر يعيش في ظل الحكم المسيحي في صقلية النورماندية كتاباً ، يمثل مستوى سطح المد والجزر لمعرفة المسلمين الجغرافية في العصور الوسطى عن أوروبا ، بالإضافة إلى بقية العالم ، هذا الكاتب هو أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي ، وهو سليل عائلة حاكمة مراكشية ، ولد في كيوتا في مراكش عام١٠٩٩ ، وبعد أن درس في قرطبة وكان يسافر عادة إلى أفريقيا والشرق الأوسط ، قبل دعوة من الملك النورماندي في صقلية روجر الثاني واستقر في بالرمو ، وهناك أتم أفضل أعماله الجغرافية المعروف "كتاب روجر" على أساس رحلاته ومعرفته التي جمعها من معارف أخرى . ولقد انتهى من هذا العمل سنة ١١٥٤ ، وهذا الكتاب يتضمن كما هو متوقع معرفة أكثر عن إيطاليا ، وكذلك يشتمل على أوصاف تفصيلية عن معظم أوروبا ، وفي هذه الفصول أدلى الإدريسي اهتماماً محدوداً بكتابات المسلمين الجغرافية ، ويبدو أنه يعتمد بشكل مباشر على المعارف المسيحية الغربية وعلى الخرائط الغربية ، وكان هذا متاحاً له في صقلية النورماندية ، وعلى النحو التالي . . وهكذا يبدأ الإدريسي وصفه للجزر البريطانية :

"يتكون الجزء الأول من المناخ السابع عن المحيط وجزره مهجورة ، وغير مأهولة بالسكان ، ويحتوي الجزء الثاني من المناخ السابع على جزء من المحيط الذي توجد فيه جزيرة انجلترا ، وهذه جزيرة عظيمة تشبه رأس نعامة ، وفيها جزر مأهولة بالسكان وجبال عالية وأنهار جارية وسهول . وخصوبتها عالية وشعبها جاف وصعب ، يتميز بثبات العزيمة والشتاء هناك مستديم . وأقرب لها وزانت Wissant في أراضي فرنسا ، وبين هذه الجزيرة والقارة . . يوجد ١٢ ميل عرضاً. . ." [٢١] .

ويستمر الإدريسي بعد ذلك في وصف دورشستر وويرهام ودارتموس ، والجزء الضيق من الجزيرة التي تدعى كورنول التي تشبه منقار الطائر. سالزبوري وسوثامبتون ، ونشستر ، وشوريهام وهاستنجس" ، وهي مدينة ذات حجم معقول وعدد كبير من السكان ، مزدهرة بالأسواق والحرفيين والتجار ودوفر ولندن ولنكولن ودورهام . وفيما وراء هذه المناطق تقع اسكتلندا التي يتحدث عنها الإدريسي على النحو التالي : "إنها

ترتبط بجزيرة انجلترا وهي شبه جزيرة طويلة إلى الشمال من جزيرة أكبر إنها غير مسكونة ، وليس بها مدينة أو قرية وطولها ١٥٠ ميلاً . . . "[٢٢] .

وكذلك يسمع الإدريسي عن مكان أبعد :

"من آخر حدود شبه الجزيرة الخالية ، شبه جزيرة اسكتلندا إلى آخر حدود جزيرة أيرلندا . . توجد مسافة إبحار يومين نحو الغرب . ويقول مؤلف "كتاب العجائب" (وهو كتاب شرقي قديم) إن هناك ثلاث مدن ، وقد اعتادت هذه المدن أن تكون مسكونة ، واعتادت السفن أن تذهب إلى هناك وتشتري الكهرمان والأحجار الملونة من مواطنها الأصلية . بعد ذلك حال أحدهم أن يجعل نفسه حاكماً عليهم . . فشن حرباً ضدهم بشعبه فحاربوه ، وظهرت بينهم العداوة ، فأباد كل منهم الآخر ، وهاجر بعضهم إلى اليابسة . وهكذا حطمت مدنهم ولم يبق سكان فيها"[٢٣] .

إن معرفة الإدريسي عن الجزر البريطانية معرفة ضئيلة نسبياً . . فلم يعرف جيداً عن القارة الأوروبية حدودها الشمالية أو الشرقية . وأوصافه للجزر بأنها تشبه رأس نعامة أو منقار طائر تشير إلى أنه قد نظروا إلى ذلك ، وربما أيضاً التقط أسماء متعددة للمكان الذي يذكره . وحذا الجغرافيون المتأخرون حذو الإدريسي وقد وضع مؤلف - غير مؤكد التاريخ ومن مكان ما في الغرب الإسلامي - يدعى ابن عبد المنعم قاموساً جغرافيا يتضمن مواد عن أوروبا . أما ابن صاعد (١٢١٤ - ١٢٧٤) ، من الكالاريال كتب "جغرافية العالم" التي اقتبس منها الكتاب المسلمون المتأخرون كثيراً وكثيراً في كل من الغرب والشرق . ويحتوي فكر ابن صاعد عن الغرب على عدد شيق من القصص . فيتحدث عن انجلترا فيقول [*] : "وصاحب هذه الجزيرة يسمى الانكتار في تاريخ صلاح الدين في حروب عكا"[٢٤] ، والحاكم المذكور في تاريخ صلاح الدين هو بالطبع ريتشارد قلب الأسد الذي يظهر في كل حسابات المسلمين عن الحرب الصليبية الثالثة تحت نفس الإسم الغريب الانكتار . ولدى المؤرخين المسلمين أقوال كثيرة من الأعمال

(*) النص مأخوذ من كتاب تقويم البلدان (المترجم) .

العسكرية والسياسية للصليبيين من الشرق ، ولقد أظهروا مع ذلك اهتماماً ملحوظاً بسيطاً بالشئون الداخلية للبلاد الصليبية ، التي تتباين فرقها العسكرية القومية ، ولا أحد على الإطلاق في بلادهم له أصل . إن تحقق ابن صاعد من سكان هذه الجزر البعيدة والغامضة تصوير للتاريخ السوري الفلسطيني هو أمر غير مألوف ؛ لأن معظم المسلمين المؤرخين كانوا يعدونهم جميعاً كفاراً أفرنجيين جاءوا من الأراضي الشمالية للبرابرة ، وكلما أسرعوا في العودة هناك . . كان ذلك أفضل ونادراً ما يذكر الحكام والقادة الإفرنج بأسمائهم ، ولكن يوصفونه بألقاب أو أوصاف مبهمة وعادة تتبع هذه الألقاب بهذا التعبير "رحلة موفقة لروحه إلى الجحيم" أو بشيء من هذا القبيل .

يوشك المؤرخون أن يقيموا علاقة (يربطوا بين معرفتهم للإفرنج في سوريا والمعرفة الضئيلة عن أروبا الموجودة في كتابات جغرافيي الطبيعة والجغرافيين والرحالة . وأما فكرة أن الدين الإفرنجي والفلسفة والعلم والأدب يمكن أن تنال أي اهتمام ، فلا تبدو أنها طرأت لأي منهم على الإطلاق ، ولا نستطيع حتى القرن الرابع عشر بعد عدة قرون من العلاقات التجارية والدبلوماسية (السياسية) أن نرجع إلى كاتب عربي ، أبسط الأفكار عن إمكان وجود مثل هذه الأمور في أوروبا . إنها قد تأتي - كما قد نتوقع - من أحد أصحاب العقول العظيمة ، التي أنتجتها الحضارة الإسلامية ، ويمكن التعبير عنها في عبارات أدبية (تعليمية) خاصة .

في الجزء الجغرافي من مقدمة ابن خلدون المشهورة . . يضع المؤرخ وعالم الاجتماع التونسي العظيم ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) وصفاً لأوروبا الغربية ليس فيه أكثر مما يمكن أن يوجد في كتابات الإدريسي والجغرافيين المسلمين الآخرين . وفي نهاية "المقدمة" مع ذلك . . توجد فكرة عن أصل وتطور العلوم العقلية التي تشتمل على قبول التغيير . وبعد وصف أصول توجد فكرة عن أصل وتطور العلوم العقلية التي تشتمل على قبول التغيير . وبعد وصف أصول العلم بين اليونانيين والفرس ، والشعوب القديمة الأخرى ، يستمر ابن خلدون في مناقشة تطور هذا العلم في ظل الإسلام وانتشاره نحو الغرب عبر شمال افريقيا إلى إسبانيا ، ثم ينتهي في حديثه إلى السطور التالية :

"كذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجة من أرض رومة ، وما إليها من العروة الشمالية نافقة الأسواق ، وعن رسومها هناك متجددة ، ومجالس تعليمها متعددة ، ودواوينها جامعة متفرقة وطلبتها متكثرة ، والله أعلم بما هنالك ، وهو يخلق ما يشاء ، ويختار " [٢٥] .

وهذا الجزء الأخير معناه مقتبس من القرآن ، ويبدو أنه شيء يفوق الاعادة مثل مولد التعليم بين الإفرنج ؛ حيث لم يكن واقعاً وراء نطاق قدرة الله على كل شيء .

وكان ابن خلدون أيضاً مؤلفاً للتاريخ العام ، كتب له مقدمة عرفت واشتهرت "بمقدمة ابن خلدون" وهذا التاريخ الذي ألفه كما قد يتوقع الإنسان ينصب تماماً على شمال افريقيا ، ويتضمن المصير المؤلم للصليبيين الذي قادهم الملك المقدس لويس التاسع ملك فرنسا ، ضد تونس . . وهذه الفكرة واضحة في نواح متعددة . فابن خلدون يعطي اسماً لحاكم فرنسا وهو سان لويس ابن لويس ولقبه الذي كان يطلقه عليه هو ملك فرنسا . وكذلك كان عارفاً بأن الملك كان معروفاً بالقديس . على الرغم من أن المؤرخ ابن خلدون لم يستخدم كلمة صليبية . . فإنه مع ذلك يقوم الحملة على تونس ؛ باعتبارها جانباً من الصراع التاريخي بين المسيحية والإسلام الذي امتد قروناً بما فيه هذا البعد نفسه ، وحكي كذلك عن أحداث الحروب العربية البيزنطية ، وألوان الصدام الأخير في فلسطين وإسبانيا . وربما أكثر ما يميزه عنه يبدأ فكرته بمناقشة مختصرة عن غزاة البلد ، التي رغم ذلك لا تذهب إلى ما هو أبعد من النطاق المحدود للمعرفة الجغرافية المتاحة .

أما ما قاله عن أوروبا فقليل ، والجزء الثاني يتعلق أساساً بالشعوب غير الإسلامية وشعوب ما قبل الإسلام ، بما في ذلك الجزيرة العربية قديماً وبابل القديمة ومصر وإسرائيل [*] وفارس وبلاد اليونان وروما وبيزنطة ، ويذكر فقط القوط الغربيين ، ونبذة

(*) يعمد برنارد لويس في هذا الموضع إلى ذكر إسرائيل كوطن ، ولا يذكر فلسطين . والأغلوطة هنا واضحة إذ أن إسرائيل كدولة لم تظهر سوى عام ١٩٤٨ ، أما بنو إسرائيل فهو شعب توزع في العالم القديم بين مختلف الشعوب .

مختصرة عنهم ضرورة كمقدمة لفتح المسلمين لإسبانيا ، وهي كذلك جزء من التقليد التاريخي الجغرافي الخاصة بالعرب الإسبان . ولم يمتد تاريخ ابن خلدون العام إلى شمال إسبانيا أو شرق فارس ، وهكذا يمكن أن نقول إن تاريخه كان مقتصراً على حضارته الخاصة به وبأسلافه ، وهكذا فإن هذا التاريخ يشبه معظم ما يسمى بالتاريخ العام الذي كتب في العالم الغربي حتى الماضي القريب .

ولكن قبل ذلك بقرن تقريباً في الشرق في بلاد فارس قامت محاولة لتقديم تاريخ عام حقيقي يغطي سائر العالم المأهول بالسكان ، كما كان معروفاً آنذاك ، محاولة كانت غير مسبوقة وكانت لفترة طويلة محاولة لا مثيل لها . وقد جاءت الفرصة المناسبة من الفتوحات المغولية التي قامت لأول مرة في التاريخ بين آسيا الشرقية وآسيا الغربية ، في نظام سلطة واحدة قامت ووضعت حضارات الصين وفارس ، في اتصال مقرب ومثمر .

وفي السنوات الأولى من القرن الرابع عشر . . دعا غازان خان الحاكم المغولي في فارس طبيبه ومستشاره رشيد الدين ، اليهودي الذي اعتنق الإسلام ، ليعد تاريخاً عاماً للبشرية يضم كل الشعوب والممالك المعروفة . ويضع العمل الجديد رشيد الدين بين أعظم المؤرخين في الإسلام ، وفي واقع الأمر في البشرية كلها . وهو عمل تبدو فيه مراعاة الضمير بطريقة مؤثرة واضحة بالنسبة للتاريخ الصيني استشار اثنين من علماء الصين ، جاءوا إلى فارس خصيصاً لهذا الغرض . وبالنسبة لتاريخ الهند استدعى . . زاهد "بوذي من كشمير . وفي عمل تاريخي بهذا الحجم الكبير . . نجد حتى برابرة غرب أوروبا يحظون بوصف مختصر في هذا العمل ، وكثير منهم حدث معه ذلك منذ أن كانوا في مفاوضات سياسية مع سيد رشيد الدين . إن معرفته عن أوروبا وشئونها تبدو كمعرفة أحد الإيطاليين ، وربما كان أحد مبعوثي البابا ، ثم بعد ذلك داوم على ساحات المغول . وعن طريقه قام رشيد الدين بالاطلاع على عصور التاريخ الأوروبية التي حققت أخيراً ، مثل تحقيق العصر الخاص بالقرن الثالث عشر ، الذي قام به المؤرخ مارتن والمعروفة كذلك- على رغم أنه من أصل تشيكي- باسم مارتينوس بولونوس[٢٧] .

والجزء الذي كتبه رشيد الدين عن الإفرنج ينقسم إلى جزءين : الجزء الأول يتكون

من مسح جغرافي وسياسي للدول والبلدان الأوروبية . والجزء الثاني يتكون من التأريخ المختصر للأباطرة والبابوات ، ولقد استفاد رشيد الدين بشكل واضح من الكتابات العربية والفارسية المبكرة عن أوروبا ، غير أن كثيراً من معرفته جديدة ، ولم تطرق من قبل . وفكرته عن علاقات البابا والإمبراطور تم تفصيلها ، وهي تأتي بوضوح من بعثة باباوية . وكانت لديه معرفة مناسبة باحتفالات التتويج الإمبراطوري ، ولقد سمع عن صوف انجلترا القرمذي ، وعن جامعات باريس وبولونيا ، وعن بحيرات البندقية وعن جمهوريات إيطاليا واختفاء الشعابين من أيرلندا . وكل هذا يمثل تقدماً ملحوظاً في المعرفة ، وحتى عبارته الغامضة بأن حاكم الجزيرتين (أيرلندا وانجلترا) يكون اسكتلنديا ، وأنهما يبعثان بالجزية إليه ربما يكون فيها شيء من الحقيقة .

إن تأريخه للأباطرة والباباوات ينتهي بالإمبراطور ألبرت الأول والبابا بيندكت الحادي عشر ، وكلاهما يوصف بطريق صحيح ؛ حيث كانا يعيشان في ذلك العصر . وهذا لا يتضمن أكثر من اختصار لمارتن الراجع إلى هذا التاريخ . وفكرته عن أوروبا واهية وسطحية وأحياناً غير صحيحة ، وبالمقارنة بينها وبين معالجته الطويلة والمملة للحضارات الأخرى "مثال حضارة الهند والصين ، فإن هذه الفكرة تبدو شيئاً تافهاً ، ولكن بعد القائمة القصيرة الخاصة بحلول الفرنجة ، التي قدمها المسعودي يبدو أن هذه هي الحالة الوحيدة التي قام بها مؤلف إسلامي في العصور الوسطى ليحدد معالم تاريخ أوروبا المسيحي ، ولم تتم المحاولة الثالثة إلا في العصور العثمانية في القرن السادس عشر . وخلال فترة العصور الوسطى ظل الإسلام يهمل ولا يهتم بالشعوب الكافرة أو بماضيها ، تلك الشعوب التي عاشت في الأراضي الواقعة إلى شمال البحر المتوسط . والشيء المميز الملاحظ هو أن مفكراً عظيماً وأصيلاً مثل ابن خلدون نفسه - وموطنه تونس إحدى البلاد المسلمة التي على دراية كبيرة ومباشرة بالغرب - شارك في هذا الإهمال العام . وأثارت المناقشة العظيمة للصليبيين ، الواضحة جداً في التاريخ الغربي ، موجة من الغموض في البلاد الإسلامي . وحتى التطور السريع للعلاقات التجارية والسياسية مع أوروبا بعد الصليبيين ، يبدو أنه لم يثر أي رغبة في التوغل في

أسرار الجانب الآخر . وبينما كانت البلاد الإسلامية القديمة في إسبانيا والشرق تتدهور وتتساقط تحت الحكم الأجنبي ، كانت تنشأ في الأناضول إمارة كانت تنمو سريعاً على حساب الإمبرطوريات الإسلامية الأخيرة والعظيمة جميعها . والدولة العثمانية ولدت على الحدود بين الإسلام والمسيحية ومن البداية وعلى الرغم من أن العثمانيين كانوا قد كرسوا بكل قلوبهم للإسلام أكثر من أي من الأسلاف ، فقد كانت لهم معرفة أكثر علماً وأكثر تقارباً على الأقل مع بعض مناطق أوروبا المسيحية . وبالنسبة للعثمانيين المتقدمين لم تعد أوروبا الإفرنجية لغزاً غامضاً كما كانت بالنسبة للعرب والفرس في العصور الوسطى . لقد كانت جارتهم وغريمتهم بعد أن حلت محل الإمبراطورية البيزنطية المنهارة كرمز للمسيحية ، الغريم والخصم الأصيل لموطن الإسلام . وكان أساسياً أن يعرف الأتراك فنون الحرب الأوروبي ويتعلمونها . وفي التعليم البحري بصفة خاصة اتبعوا الأساليب الغربية ، ولم يقوموا حتى بتحسينات قليلة من عندهم . وعن طريق الفنون البحرية الأوروبية كانوا يحتاجون كذلك إلى معرفة عملية بالخرائط والبحرية الأوروبية (١٥٥م) هو بيري ريس ، الذي يبدو أنه كان يعرف بعض اللغات الغربية ، ويبدو أنه استغل المصادر الغربية . وفي ١٥١٧م كان قد قدم خريطة للعالم إلى السلطان سليم الأول كانت تتضمن نسخة لخريطة كولومبوس لأمريكا التي رسمت ١٤٩٨م . ولما كانت خريطة كولومبوس الأصلية قد فقدت ، فإن هذه الخريطة التي ربما ضاعت في إحدى الهجمات البحرية العديدة مع الإسبان والبرتغاليين ، بقيت فقط في الترجمة التركية التي ما زالت موجودة في مكتبة مصر توبكابي في اسطنبول ، وتبع ذلك ١٥٨٠ فكرة اكتشاف العالم الجديد على ما يبدو من المصادر الأوروبية لجغرافي عثماني هو محمد بن حسن سعودي ، وأهداه إلى السلطان مراد الثالث" [٣٠] .

وهناك كاتب عن البحرية التركية في البحر المتوسط ، ألف عام ١٥٢١ ، أعيد تنقيحه سنة ١٥٢٥ ، يحتوي على تعاليم بحرية تفصيلية لسواحل البحر المتوسط . والنسخة المنقولة سنة ١٥٢٥ تتضمن مقدمة وفهرساً يعطيان فكرة عن المعرفة الجغرافية ، والتصورات الجغرافية التي كان يستخدمها عندئذ الأتراك . وخريطة متأخرة ترجع إلى

عام ١٥٥٩، يبدو أن راسمها حاجي أحمد من تونس ، وهو الذي درس في جامعة مسجد الطرابيشي في مراكش ، وكان فيما بعد ذلك أسيراً في أوروبا ، وربما كان في البندقية ، وعلى أي حال . . فهناك أعد خريطته التركية في تغطية أوروبا وآسيا وافريقيا والمناطق المعروفة من أمريكا . وهو يعطي كذلك بعض التفاصيل عن نفسه التي يظهر منها أنه جهز خريطته أثناء أسر "رجل فاضل ومتعلم" ، وعندما يصف كتابه يقول : "لقد قمت بإنتاج جديد لكتابة المسلمين بترجمة اللغات الإفرنجية والكتابات الإفرنجية "لقد وعدوا بتحريري لقاء جهودي وأعمالي التي تعجز مثل هذه الكلمات عن وصفها . . . ولقد كتبت ذلك (أو ربما فصلته) باللغة التركية بطريقتي وفقاً لأوامر سيدي ؛ لأن هذه اللغة لها سلطة عظيمة في العالم" [٣١] . وأول الأعمال الجغرافية الكبرى الخاصة بالعثمانيين بصفة عامة (Jihannüma) أي (مرآة العالم) وهو خاص بالجغرافي كاتب جلبي Katib Celebi الذي يخبرنا في مقدمته بأنه فقد الأمل تقريباً على القدرة على تأليف جغرافية عامة جامعة ، عندما أدرك أن الجزر البريطانية وأيسلندا ، لايمكن وصفها بغير الرجوع إلى الأعمال الأوروبية ، طالما هذه الأعمال كلها المتاحة له بالعربية والفارسية والتركية غير مكتملة وغير دقيقة ، وهو يقول إنه ناقش من خلال وسطاء جغرافية أورتيليوس والأطلس (الأصغر والأكبر) وأطلس ميركاتور في الوقت الذي كان يأمل فيه أن يجد نسخة من أورتيلويس "كان حظه طيباً في أن يجد الأطلس الأصغر وهو اختصار للأطلس الأكبر ، وفي الوقت نفسه . . كان حظه طيباً أن يعرف الشيخ محمد إخلاصي ، وهو راهب فرنسي سابق اعتنق الإسلام ، وبمساعدة الرجل الفرنسي بدأ في ترجمة الأطلس الأصغر وأكمله في سنة ١٦٥٥" [٣٢] .

وعند نهاية القرن . . ظهر كاتب آخر في الجغرافية ، وهو أبو بكر ابن بحرام الدمشقي (١٦٩١م) ، وكان متمتعًا بمزايا الوزير فازيل أحمد باشا ، عمل في الأجزاء المختلفة من مرآة العالم الخاصة بكاتب جلبي وأضاف هو نفسه بعض المواد إليها . وأما عمله الأكبر فهو ترجمة الأطلس الأكبر الخاص بجوان بلو . ويبدو أن الدمشقي قد اهتم أساساً بجغرافية بلو - بنسبة أقل - وبهندسيته . ومن الواضح أن فكرته عن النظريات

الكونية الخاصة بتيكوبراهي وكوبرنيكوس قد اختصرت إلى جملة هي "هناك نظرية أخرى تبعاً لها ، تكون الشمس مركز العالم والأرض تدور حولها" [٣٤] .

وأن الاتجاه الذي بدأ به عمل كاتب جلبي والدمشقي استمر في القرن الثامن عشر . وتظهر عدة أعمال جغرافية أخرى تقريباً في صورة توابع أو ملاحق لمرآة العالم (Jihannuma) وهناك عمل ينسب بأرمني له أهمية ما ، وهذا الأرمني هو بدروس - باروينان الذي كان يعمل ترجمانًا لبعثة بلاد الأراضي المنخفضة (هولندا) وفيما بعد عمل ترجماناً لوفد مملكة الصقليتين ، ويقال إنه أعد ترجمة تركية لعمل فرنسي كتبه جاك روبس بعنوان "طريقة لفهم الجغرافية بمدخل سهل" [٣٥] والأدب على الرغم من أن له اهتماماً يبدو أن احتكاكه محدود . وهناك شك فيما إذا كان البحارة الأتراك قد عرفوا كثيراً عن البحر المتوسط . وفي سنة ١٧٧٠ عندما أبحر أسطول روسي حول أوروبا الغربية ، وواجه بغتة القوات العثمانية في بحر إيجه ، عقدت الدولة العثمانية اتفاقية صورية مع ممثل البندقية ، يشكون من أن حكومته قد سمحت للأسطول الروسي بالإبحار مع البلطيق إلى الأدرياتيك . وهذا يشير إلى صفة خاصة ببعض خرائط العصور الوسطى ، التي تبين وتوضح قناة بين هذين البحرين مع أخر حدودهما في البندقية . وعلى الرغم من أن كاتب جلبي وتلاميذه قد عرفوا جيداً هذه الأمور ، وأن مرآة العالم (Jihannuma) كانت بالفعل قد طبعت . . فإن الموظفين في بورت ، كان من الواضح أنهم لا يزالون يهتدون بالتصورات الجغرافية ، التي ترجع إلى العصور الوسطى .

ويشير المؤرخ العثماني واصف الذي يرجع إلى القرن الثامن عشر إلى أن الوزراء العثمانيين لم يستطيعوا أن يدركوا أن هناك طريقة ما للأسطول ؛ كي يتجه من بيترسبرج إلى البحر المتوسط" [٣٦] .

يخبرنا المترجم والمؤرخ النمساوي جوزيف هامير بتعبير مشابه أو مقارب للشك هو "تحت بصري" في سنة ١٨٠٠ عندما رفض الوزير العظيم ليوسف زيا أن يصدق أن الإمدادات البريطانية يمكن أن تأتي من الهند عن طريق البحر الأحمر . ويعقب هامير

فيقول : كانت لدى السيد سيدني سميث الذي ساعدته مترجماً أثناء هذه المقابلة ، كل متاعب العالم ومشكلاته ؛ لكي أؤكد له بفحص الخرائط أن هناك علاقة واتصالاً بين المحيط الهندي والبحر الأحمر » [٣٧] .

ويقدم تاريخ أوروبا الحديث وأمريكا الشمالية أمثلة ، تعادل ذلك من الناحية التراجيدية على الجهل الجغرافي حول دور السياسيين وحتى رجال الدولة . ومثل هذا الجهل مع ذلك على الرغم من أنه كان موجوداً بين الحكام أحياناً . لم يكن سمة الصفوة السياسية ، وقد صحح هذا الجهل عن طريق خدمات مدنية أحسن تدريبها وتعليمها .

ومن الجغرافية البشرية لأوروبا - التي كانت شعوباً مختلفة عاشت في البلاد ، التي لاحت في الأفق العثماني - كانت هناك معرفة قليلة في الأدب العثماني ، وهناك استثناء ظريف لشخص يدعى مصطفى على من مدينة كليبولي [*] (١٥٤١-١٦٠٠) مؤرخ شهير ، وشاعر متعدد الجوانب في عصره . وعلى الأقل في موضوعية . . يحاول مصطفى علي في نوع من علم الأجناس الأوروبي في الجزء الخامس من كتابه عن التاريخ العام (الجامع) الذي لا يتضمن أوروبا ، أن يقدم استطراداً مطولاً في الأجناس المتشابكة مع العثمانيين ، في داخل وخارج حدودهم .

وتنصب فقرة أخرى مساوية للفقرة السابقة في عمل آخر لمصطفى علي ، يناقش فيها النماذج المختلفة للعبيد والخدم وأنواع السلالات وطبائع الشعوب التي ينتمون إليها . وقد تعلم مصطفى علي بطبيعة الحال أحسن تعليم عن الأجناس داخل الامبراطورية ، وهو يعكس بشكل كبير التميز المعروف لصاحب العبيد . وتقع حسن الأخلاق والكرامة من الألبانيين ، والولاء من الأكراد ؛ فهذا أمر يشبه توقع توقف

(*) كليبولي مدينة تطل على مضيق الدردنيل ، وتقع على شاطئه الغربي في شبه جزيرة كليبولي ، وهي عبارة عن شبه جزيرة تقع في الجزء الأوروبي من الأراضي التركية وممر الدردنيل ، وهو الممر الذي يصل بحر مرمرة بالبحر المتوسط ، وكانت المدينة في الماضي ميناء مهماً ، وهي الآن أحد مراكز الصيد الصغيرة ، وبها حامية عسكرية ، وكانت أيضاً مسرحاً للحملة العسكرية الشهيرة باسمها في الحرب العالمية الأولى . (المترجم) .

صياح الدجاج التي تفقس البيض ، وكذلك من غير الممكن لعبدة روسيا ألا تكون عاهرة ، أو لفارس من جنوب روسيا ألا يكون سكيراً ، ويفكر مصطفى على في السلافين البلقان أما البوسيناك وخاصة الكروات فشعب محترم . ومن بين الأوروبيين الآخرين . . يذكر فقط المجريين والإفرنج والألمان ، والإفرنج والمجريين - إلى حد ما - يشبه أحدهما الآخر ، ويتميزون بالنظافة في عاداتهم الخاصة بالمأكل والمشرب والملبس ، وملحقات المعيشة المنزلية . وهم كذلك على استعداد للفهم والإدراك السريع ، ويتميزون كذلك برشاقة الحركة . ومع ذلك . . فإنهم يميلون إلى الالتواء والحيلة ، ويحترمون اكتساب الأموال . كذلك فالنشأة الطيبة والكرامة صفات يوليها مصطفى علي اهتماماً ، هي صفات متوسطة . ومع ذلك . . فإنهم كانوا قادرين على الحوار المتصل البناء ، وبينما كان أغلبهم يتميز بجمال وذكاء الشكل . . فإن قليلاً منهم هم الذين يتمتعون بصحة جيدة ، والكثير منهم تثقله ألوان المرض المختلفة . وأجناسهم الطبيعية متنوعة ، يسهل تفسيرها . وكانوا قادرين بشكل كبير على ممارسة التجارة . وعندما يجتمعون للشراب والمسامرة . . فإنهم يستمدون سعادتهم ويأخذونها بحكمة . وكلهم كما يقول مصطفى على أناس يتميزون بالأناقة . والألمان من ناحية أخرى كانوا يتميزون بالعناد ، ومطبوعون على الشر ، ومهرة في الحرف اليدوية وما يشابهها . ويتميزون بثقل اللسان وبطء الحركة . وقليل منهم دخل الإسلام هم يفضلون الإصرار على كفرهم . ومع ذلك . . فهم مقاتلون ممتازون سواء في الفروسية أو المشاة [٣٨] .

وبطبيعة الحال . . كان مصطفى علي يكتب من نقولات (شائعات) . وبعد نصف قرن حاول أليليا جلبي عقد مقارنة بين أهل المجر أهل النمسا قائمة على الملاحظة المباشرة . ويلاحظ أفيليا أن المجرمين كانوا قد أضعفتهم الغزوات العثمانية في القرن السابق ، وهؤلاء الذين لم يهزمهم الأتراك سقطوا تحت سيطرة النمساوية . وعلى الرغم من ذلك ، فقد اعتبرهم أسمى بكثير من النمساويين الذين في نظره لا يحبون الحرب ، "إنهم تماماً مثل اليهود ، وليس لديهم جلد في القتال " والمجريون هم أفضل شعب .

"وعلى الرغم من أنهم فقدوا قوتهم ، فإنهم ما يزالون أصحاب الموائد العظيمة

الكرماء مع ضيوفهم ، وهم قادرون على الزراعة في أراضيهم الخصبة . وشأنهم شأن التتار ، يركبون الخيل أينما ذهبوا ، ومعهم من خمس إلى عشر ما يشبه المسدسات ، كذلك بالسيوف والدروع ، وفي واقع الأمر . . فإنهم يبدون مثل جنود الحدود يرتدون نفس زيهم ، ويركبون نفس الخيول الأصيلة ، ويتميزون بالنظافة في أساليبهم وفي مأكلهم وتكريم ضيوفهم . إنهم لا يعذبون أسراهم كما يفعل النمساويون ، ويتدربون على لعبة السيوف مثل العثمانيين . باختصار فعلى الرغم من أن الجانبين كفرة بغير إيمان ، فإن المجريين كفار أكثر احتراماً ونقاءً ونظافة . إنهم لا يغسلون وجوههم كل صباح ببولهم كما يفعل العثمانيون [٣٩] . ولو أن الكفار الحاليين قدموا قليلاً من القيمة ، فإن كفار الماضي قدموا أقل من ذلك ، ولم يشغل المؤرخون العثمانيون أنفسهم عادة بتاريخ أوروبا . ومع ذلك فهناك وميض من الاهتمام ، إذا صدقنا التأريخ العثماني المبكر بالاستيلاء على المدينة العظيمة التاريخية القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، الذي أثار قليلاً من الغموض حول ماضي المدينة .

"بعد أن هزم السلطان محمد قسطنطين نظر إلى آيا صوفيا في دهشة ، وسأل شعب الروم وشعب فرنجستان والرهبة والبطارقة وكذلك هؤلاء الرومانيين والإفرنج الذين عرفوا تاريخهم ، وأراد أن يعرف من الذين بنى مدينة القسطنطينية ، ومن الذي كان يحكم هناك ، ومن الذين كانوا ملوكها . . جمع السلطان الرهبان وأناساً آخرين من الروم والإفرنجة الذين عرفوا التاريخ ، وسألهم "من الذي بنى مدينة القسطنطينية هذه ؟ ومن كان يحكمها ؟ ومن جانبهم أفادوا السلطان محمد علي قدر معرفتهم من كتبهم التاريخية ومن المعرفة التي تلقوها" [٤٠] .

ومن الواضح أننا لا نعرف من يكون هؤلاء الرهبان والمؤرخين والإفرنج واليونانيين الذين استشارهم السلطان ؛ والذي سجل عن تاريخ المدينة قبل العثمانيين تاريخًا خياليًا تماماً ، وليست له أي علاقة بتاريخ هذه المدينة اليوناني والروماني والبيزنطي ، واهتمام السلطان محمد بالتاريخ المبكر للمدينة ، ولم يطرقه الكتاب اليونانيون والإيطاليون بشكل مستقل ، وبعضهم في وقت واحد أو وقت آخر . واهتمامه مع ذلك يبدو أنه غريب وفريد ، وعلى أي حال . . لم يترك أثراً في التاريخ الجغرافي العثماني .

إن أول الأعمال التاريخية التركية عن أوروبا الغربية ، هو ما كتب في القرن السادس عشر المتأخر أنه يتكون من تاريخ فرنسا المؤسس الأسطوري فارامونـد إلى سنة ١٥٦٠م ، وتبعاً للبيانات المذكورة في نهاية هذا العمل . . فقد علم أنه ترجم إلى اللغة التركية بأمر الباي فيردون الذي احتفظ بوظيفة السكرتير الرئيس للوزير الأعظم من ١٥٧٠م إلى ١٥٧٣م ، ونفذ هذا العمل رجلان ، كان أحدهما المترجم حسن بن حمزة ، وكان الآخر الناسخ علي بن سينان . واكتملت الترجمة ١٥٧٢م ، وحيث إنها بقيت في مخطوطة واحدة ، وكان هذا في ألمانيا . . فمن الواضح أن هذا العمل لم يثر اهتماماً كبيراً بين القراء الأتراك .

وخلال القرن السابع عشر . . كانت هناك علامات تغيير وقليل من المؤرخين الأتراك والعلماء الآخرون يظهرون اهتماماً بأوروبا وكذلك بعض المعرفة بالمصادر الأوروبية . فهناك شخص يدعى إبراهيم مولهمي (١٦٥٠) يقال إنه كتب تاريخ ملوك الرومان والإفرنج ، ولم تظهر أي نسخة باقية من هذا التاريخ . وقد كتب معاصره المشهور كاتب جلبي الذي كرس اهتمامه بأوروبا في أعماله أيضاً في التاريخ ، وهو يذكر في أحد أعماله ترجمة "التاريخ الإفرنجي للملوك الكفار" ، وعلى الأقل بقيت نسخة واحدة من هذه الترجمة في ملكية خاصة في تركيا وطبعت أجزاء من هذه الترجمة في صورة مسلسلة في جريدة تركية في ١٨٦٢ - ١٨٦٣ ، وفي المقدمة بعدد كاتب جلبي مصادره ، ويسميه التاريخ اللاتيني الخاص . استخدم جوهان كاريون (١٤٩٩ - مارتن لوثر) كثيراً من الدعاية البروتستانتية ، ربما كان من الممكن أن يشير إلى كاتب جلبي رغم التعاون الفرنسي ، ثم وصفه به باعتباره راهباً سابقاً . . فإن له خلفية بروتستانتية وليست كاثوليكية .

بالإضافة إلى هذه الترجمة فإن كاتب جلبي كتب عملاً أصلياً عن أوروبا ، الذي بقي فقط في مخطوطة وأوضح ذلك في بداية هذا الفصل ، وكان غرضه كما يشرح أن يعطي المسلمين معرفة دقيقة يحتاجونها كثيراً عن شعوب أوروبا ، وعلى الرغم من هدفه هذا ، فإن مقالته تساعد في فهم كلمات السيد فيكتور ميناج ، وبتفاهتها الشديدة فإنها

عبارة عن فهرس للجهل الأوروبي الذي انتشر في يومه بين الرجال العثمانيين المختصين بالتعليم [٤١] .

في تلك الأثناء . . كان هناك اهتمام قليل بالتاريخ الغربي ، على الرغم من أن ذلك كان في مستوى منخفض ، ويبدو أن هذا الاهتمام قد تزايد نوعاً في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، عندما نتج نوع جديد من المجتمعات في المدن حول اسطنبول . واستطاع العلماء الأتراك عندئذ مواجهة المسيحيين العثمانيين المتحدثين بالتركية وحتى الأوروبية ، وكان عليهم أن يتعلموا شيئاً عن العلم والمعرفة الغربية ، ومفتاح ذلك الأمير الروماني ديمتريوس كانتمير الذي كان وطنه كل من المجتمع العثماني والمجتمع الأوروبي ، وهو نفسه مؤلف تاريخ الإمبراطورية العثمانية . إن هذه المواجهات مع ذلك كان لها نطاق مجدد ، ويبدو أنه كان لها تأثير طفيف على التصور العثماني العام للعالم الخارجي . وأحد الاستثناءات هو مؤرخ معروف قليلاً من القرن السابع عشر المتأخر ، يدعى حسين حيزارفن (١٦٩١) الذي ما زالت معظم أعماله غير منشورة ، وشأنه شأن كاتب جلبي الذي يذكره بإعجاب ، كان رجلاً يحيطه غموض كبير ويهتم بالجغرافيا والتاريخ المتعلقين بالأراضي البعيدة ، بالإضافة إلى التاريخ القديم لبلاده ، ومن المعروف أنه تعلم مع مثل هذه الشخصيات مثل الكونت فرديناند مارسيجلي وأنطوان جالاند ، وربما يكون قد عرف كانتمير والمستشرق الفرنسي العظيم Petis de La Croix وربما في جزء من مكاتب ومعارف هؤلاء الأوروبيين الآخرين ، كان حسين حيزارفن قادراً على التوصل إلى أسرار الكتب الأوروبية والاستفادة منها والاستعانة ببعضها في أعماله الخاصة وأحد هذه الأعمال : "تاريخ التاريخ" ، وقد اكتمل الكتاب عام ١٦٧٣ ، وهو عمل تاريخي مقسم إلى تسعة أجزاء ، السادس والسابع والثامن والتاسع منها يتعلق بالتاريخ الخارج على الفترة الإسلامية وإسلامييها المعروفين ، وهذه نسبة مميزة بدرجة عالية . ويتعلق الجزء السادس بالتاريخ اليوناني والروماني ، والجزء السابع يتعلق بتاريخ مدينة قسطنطين منذ تأسيسها ، ويتعلق الجزء الثامن بأسياد الصين والفلبين وبشرقي الهند وسيلان ، ويتعلق الجزء التاسع باكتشاف أمريكا ، وندهش لأن حسين حيزارفن لم

يضمن أوروبا في عرضه ، ولكن أوصافه لكل من آسيا وأمريكا تقوم تقريباً بشكل تام على المصادر الأوروبية ومعظمها جاء عن طريق مرآة العالم (Jihannüma) الذي دونه كاتب جلبي .

إن أفكاره عن التاريخ اليوناني والروماني والبيزنطي مستمدة أيضاً من المصادر الأوروبية التي ساعدت على مناقشة جانب من المعرفة الإسلامية الكلاسيكية القديمة [٤٣] .

ونعود إلى التاريخ العام في أسلوبه العظيم بذلك العمل الخاص بأحمد بيه لطف الله ، المعروف باسم Münej Jmbasi الفلكي الأكبر (١٧٠٢) ، ونذكر أن عمله الأكبر هو تاريخ عام البشرية من آدم إلى عام ١٩٧٢م ، وهو كما يخبرنا يعتمد على سبعين مصدراً . وقد اختار Münej Jmbasi أن يكتب عمله باللغة العربية ، وفيما عدا قليل من الاستثناءات . . فإن النص الأصلي لم يطبع بعد كاملاً ، ومع ذلك فإن الترجمة التركية المعدة خلال أوائل القرن الثامن عشر على يد الشاعر التركي العظيم نديم Nedim طبعت في اسطنبول في كتب ثلاثة ١٨٦٨ . وأعظم جزء في الكتاب كما قد نتوقع هو ماكرسه للتاريخ الإسلامي ، ويتعلق الجانب الأساسي من الكتاب الأول مع ذلك بتاريخ ما قبل الإسلام والبلدان غير الإسلامية .

الأول يتضمن كالعادة الفرس والعرب القدامى من ناحية ، والإسرائيليات والمصريات القديمة من ناحية أخرى ، يناقشهم في سطور تقليدية تكثر وتقل .

ويذهب تاريخ Münej Imbasi القديم إلى ما وراء النطاق الإسلامي العام ، ومن الواضح أن أفكاره عن الرومان واليهود مصادرها رومانية ويهودية . وكانت هذه المصادر في جانب منها متاحة بالفعل في التطبيق العربي لابن خلدون ، مع ذلك فإن معرفته أكثر قدراً من معرفة المؤرخ العظيم في شمال أفريقيا ، وتتضمن وحدات مثل الآشوريين والبابليين والسلوقيين ، والبطالمة المعروفين من قبل بشكل واضح للمؤرخ الجغرافي الإسلامي . ومن الواضح أنه لابد وأنه استخدم مصدراً أوروبياً لهذه الأفكار ، ويصبح

ذلك مؤكداً في فصل Münej Imbasi عن أوروبا ذلك الفصل الذي يتضمن أقساماً عن تقسيمات الشعوب الإفرنجية ، وكذلك عن ملك فرنسا وألمانيا وإسبانيا وانجلترا . ويبدو أن مصدره كان الترجمة التركية لتاريخ جوهان كاريون Johan Carion رغم أنه منذ أن استمر Münej imbasi في روايته عن فترات لويس الثالث عشر الملك الفرنسي والإمبراطور ليوبولد Leopold في ألمانيا وشارل الأول في انجلترا ، لابد من أنه كانت له مادة ملحقة تحت تصرفه . وهو يحكي عن الحرب الأهلية الإنجليزية وإعدام الملك شارل ، وهو ينتهي إلى القول التالي : "وبعده لم يعين الشعب الإنجليزي ملكاً آخر عليه ، وليست لدينا معرفة أكثر من ذلك عن شئون هذا الشعب" [٤٤] .

والكُتّاب : كاتب جلبي وحسين حيزارفن و Münejj Imbasi يمدون التاريخ الجغرافي العثماني بأسره في غرب أوروبا ، إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر ومعرفتهم ضئيلة وتأتي أساساً من نفس مجموعة مصادر المعرفة .

حتى هذه الدرجة المحددة من الاهتمام ناقصة عند الكتاب العثمانيين الآخرين ، وبالنسبة لمعظم المسلمين العثمانيين . . فإن الإنجازات الأوروبية الجديدة بالانتباه إليها كانت في فنون الحرب ، ويمكن دراسة تلك الفنون من خلال البنادق والسفن ، التي تم الاستيلاء عليها بمساعدة الأسرى ومعتنقي الإسلام حديثاً ، إن للغات والآداب والفنون والفلسفات الأوروبية كان يمكن أن يكون بها اهتمام أو لها ضرورة لم تغز عقولهم ، ومثل هذه الحركات الأوروبية المتعلقة بالأفكار من فعل حركات المسلمين الفكرية في أوروبا في ذلك الوقت .

هذه الكتابات كرست لأوروبا ، وعندئذ . . فإن شعوبها وشئونها ذات أهمية ضئيلة ، وإنها تبقى في نسخ قليلة ، وأحياناً في نسخة واحدة فقط ، والجزء الأكبر منها غير مطبوع . إن اتصالهم بالفكر العثماني ، لابد أنه كان اتصالاً طفيفاً ، ويمكن جمع فكرة أفضل للتصور العثماني لأوروبا من مجموعة المؤرخين العظام ، وكان بعضهم يحتل مرتبة Vakanüvis أو المؤرخ الجغرافي الإمبراطوري ، والبعض الآخر غير موظف ، وهؤلاء المؤرخون معاً أنتجوا مجموعة كتابات تاريخية تغطي تاريخ

الإمبراطورية من منشأها إلى نهايتها ومعظمها كتابات طبعت في تاريخ قديم نوعاً ، وباختصار . فإنها تضمنت التأثير الأكثر أهمية على إدراك العثمانيين لأنفسهم ومكانتهم في العالم والتفاصيل الأخرى .

وبينما كان المؤرخون العثمانيون ، مثل هؤلاء المعروفين للتاريخ على أنهم من مجتمع فاضل . بينما كانوا يهتمون أساساً بشئونهم الخاصة . . فإن هؤلاء أيضاً قد وضعوا بعض الأمور المتعلقة بأوروبا في الحرب والتجارة والسياسة ، وأمور أخرى تشبه ذلك إن مثل هذه الاحتكاكات نجد تعبيراً مناسباً لها في الأدب العثماني التاريخي ، الذي تعكس صفته تغيرات القرون التالية .

وخلال فترة التقدم العثماني العظيم داخل أوروبا في القرن الخامس عشر كان التاريخ الجغرافي العثماني ما يزال قليلاً نوعاً ما ، ويتكون أساساً من الروايات البسيطة المكتوبة باللغة التركية البسيطة ، وتعكس النظرة العامة والتطلعات والمقاتلين المسلمين على الحدود . إنهم يرون الأوروبيين بادئ ذي بدء أعداء ثم بعد ذلك رعايا يدفعون الجزية ، ويظهرون معرفة قليلة واهتماماً بسيطاً حول ما يحدث على الجانب الآخر من خطوط القتال . ومع ذلك فهم يعرفون أنهم يواجهون الآخرين بجانب خصومهم المسيحيين ، وكلمة إفرنج Frank لا تأتي بصفة متكررة في قوائم الأعداء الذين تمت مواجهتهم والتغلب عليهم .

وفي الكتابات العثمانية الأولى . . تظهر هذه الكلمة لتدل على الإيطاليين ؛ خاصة أهل البندقية الذين التحم معهم الأتراك أثناء امتدادهم إلى اليونان وجزر البحر المتوسط الشرقية . وبطبيعة الحال . . كان الأفرنجة دائماً يهزمون ويمدون المنتصرين بغنائم عظيمة .

وفي وصف نصر تم سنة ٩٠٣/ ١٤٩٧م أعد المؤرخ العثماني القديم Ourc قائمة بالمقادير الضخمة التي سلبت من الإفرنجة المهزومين من العملات الذهبية والفضية وفرو القاقم ، وأنواع أخرى ومن الحرير والساتان والمنسوجات المرصعة بالذهب والفضة "لقد

وجدوا هذه الأشياء واستولوا عليها بكميات لا حدود لها ، حتى أن أحداً لم يعبأ أو يهتم بالعربات أو الخيول أو الجمال أو الأسرى . وكذلك تم أسر عدد هائل من الأسرى يفوق الحصر" والأوقات التي عثر فيها على مثل هذه الغنائم الرائعة هي فقط كما يقول Ourc في الجهاد في فارنا (١٤٤٤) وفي كوسوفا (١٣٨٩) وفي غزو مدينة القسطنطينية (١٤٥٣) "أو هكذا كما يقال" ويستمر في عرض ملاحظاته فيقول إن أغنى شعبين في العالم هما الشعب البولندي والإفرنجة "أغنى من أي شعوب أخرى في البضائع العالمية لذلك فهم يقدمون غنائم هائلة إلى المقاتلين المؤمنين" [٤٥] .

وهناك نظرة سوفسطائية عن أوروبا أبعد من أن تقع في تاريخ أو وثيقة ، ولكن في الشعر الملحمي أو في القصيدة الملحمية التي كتبت في بداية القرن السادس عشر ، وتسجل هزيمة الحملة البحرية الأوروبية ضد الأتراك والمقدمة في حد ذاتها صغيرة . إن القوات التركية استولت على مودون وعلى مواضع أخرى على الساحل اليوناني . ونجح أهل البندقية في جلب الدعم من أجزاء عديدة في أوروبا ، وفي أثناء الحرب شنت حملة بحرية فرنسية مع بعض الحلفاء هجوماً على الأتراك المقيمين في جزيرة ليسبوس Lesbos في نهاية شهر أكتوبر ١٥٠١ ، وصُدت الحملة وأعطت المناسبة فرصة ظهور قصيدة روائية تمجد الانتصار التركي ، والشاعر الذي حصل على لقب فردوس التركي (بعد شاعر الملاحم الفارس العظيم الفردوسي) يشرح أن غزو الأتراك لمودون قد تسبب في قلق شديد بين الإفرنجة ؛ خاصة عند زعيمهم رن باب Rin- Pap المعروف بأنه البابا في روما ، وعندما غزا السلطان بايزيد مودون يقول الشاعر أن الإفرنجة كانوا خائفين ومفزوعين جداً من سيفه ، حتى أن الجزر الأيونية غرقت في البحر مثل التماسيح ، وعندما سمع Rin- Pap غير المؤمن عن هذا بدأ يعمل على تكوين حلف أو تحالف لاسترداد مودون ، وبعث رسائل إلى كل حاكم افرنجي كافر . عندئذ قدمت مجموعة غريبة من القادة الإفرنج الذين يعاودون الظهور ، من وقت لآخر في الرواية التالية . وهذه المجموعة تتضمن ملوك فرنسا والمجر وبوهيميا وبولندا وكان ملك بولندا يسمى تسميتين تشيكي Czech ، وليش Lech ، وشخصيات أوروبية أخرى مثل كيزخان

وجيرل خـــان ، وهـي إيزابـيل التي أرســـلت "بان" Ban خاص بها (وهذا مـصطلح مجري ، يدل على الرئيس ، كان يطلقه الكتـاب العثمانيون غالباً على الضابط ، الذي يحكم فرقة عـسكريـة إسبانية في الأسطول ، ودوزا Doza رئيس القضاء في البندقية ، وحكام الأندلس وقـطالونيا Catalonia وفرسـان رودس ، وحتى أميـر موسكو إيـفان الثالث [٤٦] . وفي أسلوب ملـحمي حقيقي سمـح لقادة الأعداء أيضاً أن يقولـوا خطباً ويكتبـوا خطابات ، وهذا ألقي ضـوء مباغتاً إلى حـد ما على ما يدرك الشـاعر أنه من المعتقدات الإفرنجية ومبادئ الإفرنجة . ويتحدث هؤلاء بطبيعة الحال وينظرون إلى أنفسهم على أنهم كفار ، وهذه جملة مميزة تنسب إلى أمير سلاقي .

"أنا عبد للمـسيح ، أنا عبد لتمثال البنـدقـية ، وأنا وثنـي وأكثـر كفراً من ملك المجر" [٤٧] وأثناء الـقرن السادس عشـر كانت الإمبراطـورية العثـمانية في أوج قـوتها ومؤرخوها يعكـسون ثقة المسلمين في سموهم ، الذي لا يقبل التحدي ، ونجاحهم الذي لا ينقطع ، وفـقط الوزير الأعظم لطفي بـاشا الذي انقطع عن الدراسة وأمـعن النظر ، وتدبر فـي ويلات الإمبراطورية بـعد خلعه ، وحذر الحـاكم من خطر مزدوج هـو فساد الوطـن وقيـام البحـريـة الإفـرنجية ، ومـعظـم المؤرخين الآخـرين لم تـزعجهـم هذه الاهتمامـات . فلو ذكر الإفرنجة علـى الإطلاق فهذا يتم بـاحتقار بمثل عبـارات البرابرة الأعداء ، أو مثل دافعـي الجزية . وفي القرنين المتـأخرين السادس عشر والسـابع عشر توجد علامات عـلى ظهور التجار الإفرنج ، وحـركة السفن ، وأحياناً تـوجد علامات على وصول سياسيين إفرنجة إلى اسطنبول .

ويسجل المؤرخ العثماني سيلانيكي مـصطفى أفندي ، وصول السفير الإنجليزي إلى اسطنبول في ١٥٩٣ ، ويدعى ادوارد بارتون في هذه الكلمات :

"حاكـم دولة جزيـرة انجلتـرا التي تبـعد ٣٧٠٠ ميـل بحراً عـن القرن الذهـبي لإسطنبول ، وهناك امرأة تحكم منطقة موروثة وتبقى على دولتها وحكمها في أتم قوة ، وتدين بالديانة اللوثرية (نسبة إلى مارتـن لوثر) . وتبعث برسائل تكريم ، وتبعث رسلاً وهدايا ومنحاً . وفي يوم كان هناك اجتمـاع المجلس ، وقد حضر السـفير ، وتم تكريمه

وفقاً للقانون . وسفينة غربية مثل هذه لم تدخل ميناء اسطنبول . لقد عبرت ٣٧٠٠ ميلاً بحرياً ونقلت ٨٣ بندقية ، بالإضافة إلى أسلحة أخرى - وبصورة عامة كانت الأسلحة النارية على شكل خنزير وجدير بأن تسجل لأمرها العجيب" [٤٨] .

وسفينة سيلانكي Selaniki الإنجليزية ببنادقها الثلاثة والثمانين التي تأخذ شكل الخنازير ، تبدو خالية بعض الشيء ، ولكن على الأقل قد عرف أن هناك ملكة بروتستانتية في انجلترا ، وكذلك هو أو معرفته قد لاحظت التسليح الثقيل للسفن التي شيدت لتبحر في الأطلنطي .

وأثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . . يكرس المؤرخون العثمانيون اهتماماً ما بالعلاقات مع أوروبا رغم أن ذلك لم يكن على درجة كبيرة . وما زال يشار إلى الأمم الأوربية المختلفة بإشارات مثل "الكفار الإنجليز" ، "الكفار الفرنسيين" الخ ، على الرغم من أن اللعنات المعتادة في التاريخ الجغرافي المبكر أصبحت أقل تكراراً أو أقل حدة .

وبصفة عامة مع ذلك عندما بدأ المؤرخون العثمانيون في الاهتمام أكثر بالشئون على حدودهم الأوروبية ، كان لديهم القليل الذي يقولونه عما يجري في أوروبا . وكان هناك اتساق مميز في ذلك ، يرجع من ناحية إلى أن المؤرخين العثمانيين اعتبروا رواية الأحداث السابقة والماضية نوعاً من التسجيلات الوثائقية الثابتة ، أكثر منها جملاً تخص أفراداً ؛ ولذلك . . فقد شعروا بالحرية في النسخ في نهاية الأمر .

وحتى عالم القرن السابع عشر جلبي . . الذي يظهر في كتاباته الجغرافية والتاريخية الأخرى بعض الاهتمامات بأوروبا تحول قليلاً جداً من عادة التاريخ العثماني العام . وفكرته تلك الخاصة بالوصول إلى تركيا من أخبار حرب الثلاثين عاماً ، فكرة مختصرة ومميزة ، وتبدو تقريباً حرفية (أو بالحرف) عند عدد من الكتاب الآخرين . ولقد كان هناك اهتمام بتاريخ الأحداث بالنسبة للمسلمين سنة ١٠٥٤ . وفي شهر شوال من هذا العام ، الموافق لشهر ديسمبر ١٦٤٤ ، كما يخبرنا جاءت تقارير إلى اسطنبول "من المعروفين على حدود قلعة بودا تحمل القصة التالية : "كان الإمبراطور الروماني فرديناند

يود أن يخفض الناخبين السبعة ، المعروفين في تركيا بالملوك السبعة ، حتى يتفقوا مع تسمية ابنه باعتباره خليفة للقب الإمبراطوري أثناء حياته . وأحد هؤلاء السبعة مناضل الفرنسيين ، خطفه الإمبراطور باتفاق مع ملك إسبانيا وقتله ، فغضب الملك الفرنسي جداً ، وعقد اتفاقية مع السويد التي غزت الأراضي الألمانية واستولت على مدينة براج القديمة واستمرت الحرب حتى عام ١٠٥٧ (١٦٤٧) حتى عقد السلام . بعد ذلك اضطر النمساويون الذين كانوا قد ضعفوا جداً إلى التنازل عن الاسك Alasce لفرنسا وبوميرانيا سويد[٤٩] .

هذه الفكرة أخطأت تاريخ كل من دخول السويد إلى مدينة براج (حيث فشلوا صدفة في الاستيلاء على المدينة القديمة) وكذلك أخطأت تاريخ معاهدة ويستفاليا وهي تظهر جهلاً ملحوظاً بالأمور الأولى في الحرب ؛ حيث لم تتناول مركباتها الدينية والسياسية . وفي فقرة أخرى تحت عنوان "حرب الفرنسيين والسويد ضد الكفار النمساويين" يعطي كاتب جلبي فكرة تفصيلية أكثر قليلاً ، يقول بإنها حدثت بين أحداث ١٠٤٠ (١٦٣٠/١٦٣١) . وأن الملك الفرنسي لويس الثالث عشر يريد أن يصبح إمبراطوراً ، والإمبراطور يعين بسبعة ملوك يدعون الناخبين ، كل واحد منهم له أرضه الخاصة به ، ويقال إن الملك لويس نجح في الانتصار على اثنين منهم .

وكان الامبراطور آنذاك هو أبو الإمبراطور الحالي فرديناند (فرديناند الثالث الذي مات ١٦٥٧) ورتب لأن يلقب ابنه باعتباره الخليفة له مدى الحياة . ولم ينل ذلك اللقب استحسان الناخبين حيث قالوا بأن ذلك لا يبدو مناسباً ، وأنه ضد القانون ، وشن الملك الفرنسي حرباً اعتراضاً على ذلك ، وتحالف مع الملك السويدي قائلاً بأن مثل هذا اللقب مدى حياة الإمبراطور أمر ضد قوانين الكفار .

وفيليب الرابع (١٦٦٥) "الذي كان ما يزال ملكاً على إسبانيا . . كان خال ملك فرنسا وكان هناك سلام بينهما ، ولكن ملوك إسبانيا مثل Nemce كانوا من دوستوريا ، ولذلك فقد انضم إلى جانب الإمبراطور "وبعد ذلك تأتي فكرة مختصرة عن حرب الثلاثين عاماً حتى السلام النهائي في ويستفاليا"[٥٠] .

ويقدم كاتب جلبي تقارير عديدة أخرى عن الشئون الفرنسية . وخلال عام ١٠١٨

يلاحظ أن بعثة جاءت من عند الملك الفرنسي هنري للاستفسار عن تجديد الامتيازات [٥١] . وقد أشار السفير الفرنسي فرنسسكو سافاري إلى الصداقة التي وجدت بين الحكام الفرنسيين والعثمانيين الأوائل إلى الامتيازات التي كانت تمنح في زمن السلطان محمد الفاتح (المنتصر) . ويقول كاتب جلبي أن آخرين بجانب الفرنسيين تسلموا هذه الامتيازات ؛ فعدّد أهل البندقية الإنجليز أهل جنوة والبرتغاليين وتجار كاتلا وصقلية وانكونا وإسبانيا وفلورنسا وقد دخل عديد من هؤلاء تحت العلم الفرنسي وباسم الملك الفرنسي . ونوقشت مسائل أخرى على يد السفير ، كما يقول تضمنت إمكان الحج إلى القدس ، ونشاطات البرابرة ، والتعاون العسكري القديم .

ودعا وصول بعثة البندقية في يناير ١٦٥٣ لاستغلال السلام بمساعدة السفير الإنجليزي المؤرخ العثماني إلى تعليق شخص نادر . إنه يقول إن سفير البندقية (أو الفينيسي نسبة إلى فينيسيا) "كان كافراً عمره تسعين عاماً برأس وأيدي ترتعش ، ولكنه كان سفيراً ماكراً" [٥٢] . ولا يبدو أن البندقيين كانوا يستخدمون نفس السياسة ، وربما كان ذلك أمراً خاصاً به لسنه المتقدمة .

هناك استثناء عن المؤرخين العثمانيين في القرن السابع عشر ، وهو إبراهيم رسفى ، غطى تاريخه الأعوام بين ١٥٢٠ - ١٦٣٩ . وقد ولد في ١٥٧٤ في مدينة Pecs المجرية حيث لقب بلقب المدينة . وبالنسبة لأبيه . . فقد جاء من أسرة تركية كانت تخدم السلاطين لأجيال ، تنتمي أمه إلى سوكلا وهكذا كانت تتمتع بأصل إسلامي . وفيما عدا بعض المهمات التي قام بها في الأناضول ، فإنه يبدو كما لو كان قد قضى معظم حياته في المجر ، ومولده وتربيته في الولايات على الحدود الأوروبية أعطياه قدراً من المعرفة ، وكذلك من الاهتمام الذي كان نادراً بين المؤرخين العثمانيين . ولم يكن برسفي Percevi معنياً بالتاريخ العام أو الجغرافيا العامة وكان ما يزال معنيًا قليلاً بكتابة أو ترجمة تواريخ الملوك الكفار . وكانت أولى اهتماماته مثل معظم العثمانيين ، ومعظم المؤرخين الغربيين هي اهتماماته بتاريخ الإمبراطورية ، التي كان هو أحد رعاياها ؛ خاصة بحروب هذه الإمبراطورية ضد خصومها في أوروبا .

وبالنسبة للفترة المبكرة . . لذلك يبدو أنه قد اتبع التقاليد العامة لأسلافه من المؤرخين ، وبالنسبة للفترة المتأخرة . . فقد اعتمد بطريقة أساسية على الدليل أو البرهان ، الذي لم يتناوله أحد ، وهو عبارة عن تجاربه وخبراته الخاصة وتقارير الجنود القدامى ، ولكن إلى جانب هذه المصادر العادية المعروفة . كانت لدى رسفي فكرة متجددة هي استشارة مؤرخي الأعداء . وفوق ذلك كان مهتماً بالتاريخ العسكري ومركزاً بصدق على التفاصيل الخاصة بالمعارك الكبيرة التي قامت في سهول المجر . ولكن العثمانيين تنقصهم التفاصيل أحياناً ، وكذلك كان رسفي على جانب آخر من ذلك فيقول : "في بلادنا يوجد مجريون بعدد كبير قادر على القراءة والكتابة (هو يستخدم الكلمة المجرية Deak ، وتعني أن الفرد يمكنه أن يقرأ اللاتينية) [٥٣] ، وكان هناك بلاشك عدد من المجريين في الإمبراطورية ، سواء أكانوا أسرى أم معتنقين للإسلام يكفون غرض رسفي ، ويبدو أنه اتصل بالمؤرخين المجريين الذين كتبوا باللاتينية ، وقرأ لهم وترجم لهم إلى التركية . وضمن منها عدداً من الفقرات في تاريخه الخاص ، وبينها أفكار عن معركة Mohacs العظيمة ووقائع أخرى في الحروب المجرية . وعلى الرغم من أنه لم يعدد مصادره ، فإن اثنين من هذه المصادر تحقق منهما العلماء المحدثون [٥٤] . ويبدو أن رسفي كان أول مؤرخ عثماني ، يقارن أفكار الأعداء عن المعركة بأفكار جانبيه ليؤلف بينهما في رواية واحدة . وفي مثل هذا الأمر سبقه القليل في أماكن ما ، وبالتأكيد أصبح له قليل من الخلفاء لفترة طويلة .

وتاريخ رسفي يتضمن إشارات أخرى عديدة للأحداث في أوروبا ؛ خاصة تلك الأحداث ذات الاهتمام العثماني الإسلامي ، وهو يتحدث باختصار عن الارتباط الفرنسي والتركي في العمليات البحرية في البحر المتوسط ضد البندقية وحلفائها . ومن وقت لآخر يتحول عن الشئون السياسية والعسكرية ، التي تمثل جل اهتمام المؤرخين ؛ فتارة يصف مقدم التسبغ إلى تركيا من التجار الإنجليز ، وتارة يعطي موجزاً عن اختراع كل من الطباعة والبارود في أوروبا [٥٥] .

وربما أكثر مميزة في تواريخ الإمبراطورية العثمانية هي مجموعة "تاريخ نايما" . وهي تغطي الفترة من سنة ١٠٠٠ إلى سنة ١٠٧٠ من التاريخ الإسلامي الموافق من سنة

١٥٩٠ إلى سنة ١٦٦٠ ، ونايما الذي طبع تاريخه بالإضافة إلى أنه أجاد كتابته كان واحداً من أعظم المورخين العثمانيين ، وعلى عكس عدد كبير من زملائه الذين كانوا يؤرخون بوصفهم مجرد مؤرخين للأحداث . . كان نايما يتمتع بتصور فلسفي لطبيعة التاريخ ، وكان فكره عميقاً في التاريخ .

وأحد مقالاته الكبرى في التاريخ كانت الحرب في أوروبا ، في كل من شبه جزيرة البلقان ومنطقة البحر الأسود . وأفكاره حول هذه الصراعات مفصلة تماماً ، وكذلك بالنسبة إلى القراء الأوروبيين المحليين في المجر وترانسلفانيا ، الذين دخلوا ضمن هذه الحروب ، وظل امبراطورها أيسبرج غامضاً وغير واضح المعالم ، وكانت صوره عادة بغير اسم ، بينما يظهر ملوك وممالك الغرب بأسمائهم . وبين أحداث حرب الأعوام الثلاثين في ألمانيا . . يوجد حدث مركزي في الفترة التي يغطيها أكبر ، لابد أنه كان يمثل أهمية مباشرة للعثمانيين ، ولا يقدم نايما أكثر من نقل للتواريخ السابقة عليه ، وينسخ بطريقة مهملة جداً لدرجة أنه يشير إلى الملك الإسباني فيليب الرابع على أنه "ما زال ملكاً على إسبانيا في ذلك الوقت" بعد مرور مائة عام على رحيله . ومن العجيب أنه أيضاً أقل اهتماماً بالأحداث والوقائع البعيدة مثل أفعال ونشاطات لويس الرابع عشر في فرنسا ومثل الحرب الأهلية ، ونظام الثروة المشتركة في انجلترا .

ومع ذلك . . ففي جانب واحد يضع نايما دليلاً على تخليه الطريف عن الأمور العادية في التاريخ الجغرافي العثماني ، وذلك في اهتمامه بتاريخ الماضي البعيد والأحداث الجارية ، ولم يكن ذلك تماماً دون سابقة في التاريخ الجغرافي العثماني . ويصف مؤرخ القرن السادس عشر كمال بايزيد كيف أن السلطان سليمان العظيم خرج في سنة ١٥٢١ يشن حرباً ضد الإمبراطور ، ويقدم نوعاً من الثأر لغزو آسيا على يد الصليبيين الألمان في العصور الوسطى ، ونايما الذي يكتب في القرن الثامن عشر المبكر ، وعندما اهتزت الإمبراطورية العثمانية بهزائمها في أراضي النمسا وروسيا ، حاول أن يجد راحة في قصة النجاحات الأولى والهزيمة الأخيرة للصليبيين قبل ذلك بقرون .

"بعد ستة قرون من العصر الإسلامي (تاريخ نايما خطأ بشكل طفيف) لأنه ليس هناك أي اتفاق أو اتفاقية بين ملوك الإسلام . . ظهر نزاع وخلاف ، وبينما كانوا مشغولين بمحاربة كل الآخر . . فإن الكفار الفرنسيين والملوك الآخرين الكفار اللامحدودة من الجنود المرسلين من النمسا (محاولة جاء هو بشكل غامض لربط الصليبيين بالحروب النمساوية الجارية) جاءوا بأسطول عظيم إلى شواطئ البحر المتوسط واحتلوها .

ويستمر نايما في وصف كيف كان الإفرنج المنتصرون ، قادرين في البداية على إقامة أنفسهم عبر السواحل السورية والفلسطينية ، وكذلك ليهددوا دمشق ومصر ، وقد انتهى هذا الخطر على يد صلاح الدين الذي حاصرهم ، حتى طردوا في نهاية الأمر على يد خلفائه وطهرت الأراضي التي احتلونها من دنسهم " .

ويبدو أن نايما قد وجد دليلاً في ذلك للعثمانيين في عصره . وجد سلاطين العصور الوسطى في مصر وأنه من الضروري أن يعقدوا مصالحات (أو تسويات) ، وكان أحدهم يبغي توقيع معاهدة تخلي عن القدس الإفرنج . ويبدو أن هذا المغزى هو أن العثمانيين أيضاً لما كانوا يقاسون من مجموعة هزائم . . كان لابد أن يعدوا أنفسهم لنشر الإسلام ، حتى إذا جاء ذلك في عبارات ليس من مصلحتهم ؛ لكي ينقذوا ما يمكن إنقاذه من حطام ، ويجهزوا أنفسهم لعودة نهائية [٥٦] .

وفي موضع آخر ازداد نايما وضوحاً : "لقد كتب هذا لغرض بيان ، كيف يكون من المهم عقد هدنات مع الملوك الكفار ، وفي واقع الأمر عقد سلام مع المسيحيين في كل الأرض حتى يمكن أن توضع الأراضي العثمانية في نظام ويأخذ السكان هدنة ومهلة " [٥٧] .

وخليفة نايما كمؤرخ جغرافي للسلطة ، راشد أفندي يبدأ حيث ينتهي نايما في سنة ١٠٧٠ الموافقة لسنة ١٦٦٠ ويستمر إلى ١٧٢٠ . وهكذا فإن تأريخه يغطي مجموعة من الأحداث العظيمة في العلاقات العثمانية بأوروبا . والحصار الناجح الثاني لفيينا

والانسحاب الذي تبع ذلك ومعاهدة كارلوتز سنة ١٦٩٩ والحرب مع بيتر الأعظم في روسيا سنة ١٧١٠ - سنة ١٧١١ ، ومع البندقية والنمسا في سنة ١٧١٤ - سنة ١٧١٨ والعلاقات الغامضة المركبة مع الملك شارل الثاني عشر ملك السيد بما في ذلك إقامته في تركيا ضيفاً ثقيلاً على السلطان . ولا عجب في أن راشد يولي اهتماماً أكبر من أسلافه بالعلاقات السياسية (الدبلوماسية) بما في ذلك مفاوضات السلام مع الخصوم الحاليين للعثمانيين وروسيا والنمسا والبندقية ، وكان عنده قليل يقوله عن بعض البلاد البعيدة عن أوروبا . وكذلك فإن راشد هو أول من قدم تقريراً عن رحيلهم وعدتهم . ويقدم راشد ممارسة جديدة في كتاباته التاريخية من التقارير التي يبعثونها ، والذين يشغلون مناصب السفراء يقدمونها بعد عودتهم إلى اسطنبول ، رغم تزايد الاهتمام بالعلاقات الدبلوماسية مع أوروبا فقد ظل لا يأبه تماماً بالشئون الداخلية للبلاد الأوروبية ، وشأن أسلافه . . يمر مر الكرام على الأحداث الكبرى في التاريخ الأوروبي في تلك الفترة .

ويمكن أن يقال نفس الكلام عن معظم معاصريه الذين غطوا العقود الوسطى من القرن الثامن عشر ، رغم أن المرء يلاحظ تزايداً طفيفاً في المساحة التي خصصت للعلاقات الدبلوماسية مع أوروبا ودرج التفاصيل عن الحكام الأوروبيين . وكذلك هناك بداية للاهتمام بشئون أوروبا . يقدم المؤرخ العثماني السلحدار نقلاً تركياً لمعاهدة ريسوك سنة ١٦٩٧ [٥٨] . ويبغي المؤرخون العثمانيون أو كثير منهم أن يكرس صفحة أو اثنتين للخلافة النمساوية ولتعديد المناطق الداخلة ضمن هذا واهتماماتها .

فيما عدا الأفكار المختصرة جداً عن حرب الثلاثين سنة ، فإن هذا هو النضال الأوروبي لأول الذي يلقى هذا الاهتمام من المؤرخين والجغرافيين العثمانيين ، وهناك مؤرخ آخر من هذا الوقت سمدانيزاد سليمان أفندي Semdaniade Suliyman Efendi يفسر النظام الانتخابي للإمبراطورية الرومانية المقدسة بهذه الكلمات العثمانية : "منطقة Nemce تتكون من ممالك تسع ، ثلاث منها هي Sanjaks of Maizn و Trier في إيليت Eyalet في الراين Raine ، وهؤلاء هم أول ثلاثة من الناخبين ويحملون خاتم الكهانة "والمملكة الرابعة ثم المتابعة czechEyalets of وبافاريا Bavaria ، وساكسون

Saxony وبروسيا San jak Eyalet, Prussia وهانوفر Hanover . وبالإضافة إلى هذه الولايات التسع Sanjak سانجال ، سافوي Savoy ، عندئذ في ظل حكم ملك ساردينيا ، ولديه ملاحظات قليلة عن هاتين الولايتين الأولى سانجال وهي مقاطعة مستقلة ، والثانية إيليت سوابيا Swabia Eyalet of وهي جمهورية مستقلة أيضاً .

وهو يشير إلى أن حاكم إيليت بروسيا Eyalet of Prussia شخص عظيم يطلق عليه اسم العظمة Grandebur وهو أيضاً اسم لقلعة في هذه الولاية ، أما لقب هذا الحاكم فهو فريدوريكو Fredoricus . وعن هانوفر Hanover يشير سيمدانيزيد [٥٩] أيضاً ملاحات مختصرة عن الأحداث الأخرى في أوروبا ، ولما كان مهتماً أساساً بالنمسا وروسيا . . فقد ذكر تلميحاً مناسباً عن الدول الأبعد والأكثر غموضاً مثل فرنسا وانجلترا وهولندا والسويد ، ورغم أنه كان يعرف الخلافات والنزاعات بينهما . . فقد اتجه إلى افتراض عداء عام للدولة الإسلامية ، وهكذا في الأزمة مع روسيا ١٧٣٦ عندما خاف السفراء الإنجليز والهولنديون الانحدار والانهيار العثماني ؛ فقد كان من الواضح أنهم يحرضون على المؤامرات والتدابير الروسية [٦٠] .

ويمكن أن نلاحظ تغييراً آخر في تاريخ Vasif الذي يغطي الفترة من ١١٦٦/ إلى ١١٨٨ / ١٧٧٤ ، يتعلق بفترة الخطر الذي كان يحدق بالإمبراطورية العثمانية مركزاً على المعاهدة الكارثة "كوكوك كاينارجا" Kiucuk kaynarja التي فرضتها على الأتراك روسيا المنتصرة . وواصف نفسه عاش في الفترة النابليونية الثرية وفترة الحروب النابليونية (نسبة إلى نابليون) وكان شاهداً على أحداث عظيمة مثل غزو فرنسا واحتلالها مصر ، ذلك الغزو الذي كتب عنه كتاباً مستقلاً . في هذا التاريخ يكتب واصف تقريراً عن البعثات العثمانية إلى فيينا وبرلين ، ويقتبس كثيراً من أفكارهم عن سياسات أوروبا الوسطى .

وفي القرن الثامن عشر المبكر عندما كانت الامبراطورية العثمانية متورطة في شئون أوروبا فإن الاهتمام الذي أعطاه المؤرخون لهذه الشئون ما يزال اهتماماً ضئيلاً بشكل ملحظ ، وفيما عدا الحروب الفعلية التي وصفت بطريقة تفصيلية نوعاً ما فقد اهتم

المؤرخون قليلاً بعلاقات العثمانيين مع روسيا والنمسا والغرب ، أكثر من اهتمامهم بفارس ، وبأخبار الولايات التي تتعلق بالأحداث المختلفة والنزاعات ، نزاعات الباشاوات ومشاهير الإمبراطورية . وكان الاهتمام بالشئون الخارجية أكبر قليلاً من ذي قبل ، ولكنه ما يزال محدوداً ، ويبدو أن المعرفة التي استخدمها مختلف المؤرخين العثمانيين آتية من نفس القدر القليل من المعارف ، وعن طريق الأجانب ومعتنقي الإسلام حديثاً وغير المسلمين داخل الإمبراطرية . ولقد عرف القرن الثامن عشر العثماني كثيراً عن البلاد والقوميات الأوروبية ، مثلما عرف القرن التاسع عشر عن قبائل وشعوب افريقيا ، ونظروا إليهم بنفس الاحتقار ، ويبدأ الإحساس المتزايد بالخطر بإدخال تعديل على هذه النظرة ، إن كان هذا التعديل بطيئاً وتدريجياً .

ومع نهاية القرن الثامن عشر . . لم تهتم الأفكار العثمانية عن أوروبا بأي شيء جوهري جداً ، ومع ذلك فإنها تمثل تقدماً ملحوظاً ومعتدلاً عما كان يجري من قبل ، وكانت ما تزال في تناقض ملحوظ مع النقص الكلي في مثل هذا الأدب في اللغة الفارسية ، أو مع استثناء تقارير السفارة المغربية القليلة في اللغة العربية .

والموقف الجديد في القرن الثامن عشر - وهو معرفة الهزيمة والعلم بالخطر - أدخل تعديلاً في طبيعة الاهتمام العثماني أوروبا . وإنه الآن يتعلق في المقام الأول بالدفاع . ولكن الحدود الفاصلة بين الحضارتين حدث أن خرقت ؛ فلم يعد من الممكن الاحتفاظ بسيطرة دقيقة على المرور من الحدود . وقد أدى الاهتمام بالعلوم العسكرية من ناحية ، والحاجة إلى معرفة سياسية وعسكرية من ناحية أخرى ، إلى اهتمام بالتاريخ الأوروبي الحديث ، الذي على الرغم من أنه كان في البداية عابراً ومتقطعاً ؛ فقد أصبح أكثر ضرورة وأهمية حيث بدأ الأتراك تدريجياً في إدراك أن حياة إمبراطوريتهم تعتمد على فهم وثيق لما كان يحدث في أوروبا . وتتضمن الكتب التي طبعت في المطابع التركية الأولى التي أنشأت في سنة ١٧٢٩ ، وأغلقت في سنة ١٧٤٢ اهتماماً بالتاريخ والجغرافية . وبين هذه الكتابات ، فكرة السفير محمد سعيد أفندي عن سفارته لدى فرنسا ، ومقالة في علم التكنيك الذي كان يطبق في الجيوش الأوروبية ، كتبها مؤسس

المطبعة إبراهيم موتيفريكا ، وترجمة للروايات الأوروبية عن الحروب في بلاد فارس . كذلك نشر إبراهيم بعض الأعمال القديمة ، التي تتضمن تاريخ القرن السادس عشر الخاص باكتشاف العالم الجديد ، وجزءاً من الكتابات الجغرافية الخاصة بكتاب جلبي .

وبالإضافة إلى هذه الكتب التي طبعت في مطبعة موتيفريكا . . فقد حفظت بعض المخطوطات في مجموعات إسطنبول ، وتدل على ظهور اهتمام جديد بالتاريخ الأوروبي ، ومخطوطة يرجع تاريخها إلى ١٧٢٢ تقدم تاريخاً خاصاً عن النمسا من ٨٠٠ إلى سنة ١٦٦٢ ، وقد ترجمت من اللغة الألمانية على يد المترجم عثمان أغا من تيمسفار Temesvar ، وتتعلق بشكل مباشر بالشئون الجارية ، ومخطوطتان كتبتا في ١٧٢٥ تعطيان معرفة لم يتناولها أحد - فهي جديدة بحق - عن أوروبا المعاصرة . وإحدى هاتين المخطوطتين قصيرة ، ولا تحمل أسماء تتعرض للشئون في أوروبا ، وهي باقية في تركيا في أربعة نقوش على الأقل ، وتوجد بها درجة من العناية أنها تبدأ بتحديد وتعريف المراتب العلمانية والدينية ، وتتكون بصفة أساسية من نوع من الرومانية المقدسة ، وتتبعها دول إيطاليا (البندقية وجنوة وغيرها) ثم سويسرا وإسبانيا والبرتغال ومالطة "مناطق الإنجليز" وهولندا والدانمارك والسويد وبولندا وروسيا . وكان المؤلف ضعيف المعرفة بانجلترا فهو يسمى الحاكم ويليام الثاني (ويليام الثالث الذي مات في سنة ١٧٠٢ قبل أن يكتب هذا النص بالتأكيد) ، وعلى الرغم من أنه نص مكتوب بعناية ، ويعدد أسماء أماكن أجنبية . . فقد شوه معظم هؤلاء في بريطانيا . وكاتبه عارف جيداً بشئون القارة ، عندما يلاحظ على سبيل المثال أن Archibshop من كولونيا كان ابناً لدوق بافاريا ، وأن ميكلنبرج Mecklenburg دخلت مؤخراً تحت الاحتلال الروسي (حقيقة في ١٧١٦) ، وأن القيصر (بيتر ، بطرس الأعظم الذي مات ١٧٢٥) قد استولى على معظم الأراضي البلطيق من السويد (بمعاهدة ١٧٢١) ، وتعبيرات أخرى مماثلة .

ويبقى النص الآخر أيضاً في مخطوطات متعددة ، ويتعلق بجريان العالم ، وفقاً للملحوظة في المخطوطات جاءت على هذا النحو "راهب متعلم جاء مؤخراً من تولوزي

Toulouse في فرنسا واعتنق الإسلام في حضرة الوزير الأعظم . ولما كان قد قام برحلات متعددة ، وقد عرف تماماً شئون العالم فإن هذه المقالة مأخوذة من شهادته" [٦١] .

من الواضح أن المقالتين كتبهما مؤلف واحد ، ربما الناشر الذي أعد المعرفة على الأمور البحرية التي تم الحصول عليها من الفرنسيين ، الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً . وتشير الصورة الهجائية التي جاءت عليها الأسماء الغربية إلى أن صاحب هذه المسألة ربما من أصل مجري ، وربما لا يكون غير إبراهيم موتيفريكا [٦٢] .

وتقرير آخر يرجع تاريخه إلى ١٧٣٣ - ١٧٣٤ يتعلق "ببعض الأحوال التاريخية لدول أوروبا" وصفة كلاود ألكسندر من بونيفال ، ثم أحمد باشا ، وهو نبيل فرنسي التحق بالخدمة العثمانية ، واعتنق الدين الإسلامي .

ويتعلق هذا التقرير الأخير بالأحداث في النمسا والمجر وإسبانيا وفرنسا ، وقد ترجم إلى اللغة التركية ربما عن المؤلف الفرنسي الأصل . وضمن المؤرخ عبد الرحمن مونيف أفندي (١٧٤٢) في عرض شامل وعام للممالك الكبرى ليس فقط حكام الإسلام ، ولكن أيضاً الأباطرة الرومان الوثنيين والمسيحيين ، والأباطرة البيزنطيين وملوك فرنسا وملوك النمسا . مخطوطة من القرن الثامن عشر المتأخر بعنوان "عرض للشئون الأوروبية" بروسيا في ظل حكم فريدريك ويليام الثاني ، وفرنسا في ظل الحكومات الثورية ، وفي سنة ١٧٩٩ أعد مسيحي من اسطنبول يدعى كوسمو كوميداس Cosmo comidas قائمة باللغة التركية عن الحكام الأوروبيين بتواريخهم الميلادية ، وتواريخ توليهم العرش ، وعواصمهم وألقابهم وورثتهم ومعلومات مفيدة أخرى .

وفي الدول العربية التي كان معظمها تحت السيطرة العثمانية أو الهيمنة العثمانية كان الاهتمام بالغرب معدوماً ، فيما عدا اهتمام محدود بين الأقليات المسيحية . وفي مراكش أرسلت بعض التقارير من السفراء إلى عواصم أوروبية مختلفة ، تمد ببعض المعلومات والمعرفة الأساسية بالأحوال السياسية الداخلية ، وفيما يتعلق بالاهتمام

التاريخي . . لـم يكن هناك أحد حتى القـرن التاسع عشر . وفي الشـرق العربي الذي يسيطر عليه العثمانيون . . فإن الهجوم الفرنسي والإنجليزي فيما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عـشر أيقظ نوعاً مـا بعض الاهتمام بالـشعوب الأخرى . ولكن الأفـكار التي كتبت في ذلك الوقت قـليلة العدد ، وتهتم أساساً بمناشط الإفـرنجة في الشرق ، وليس بالأحداث الوطنـية التي دعتهم للـذهاب هناك . ولا نجد قبل ١٨٢٠ أية تـرجمات في مصر للكتب الغربية الآتية من المطبعة التي أنشئت في القاهرة على يد الحاكم محمد علي باشا ، وفي الدول العربية الأخرى ، وفي إيران . . جـاءت اليقظة الإسلامية والاهتمام بالغرب متأخراً إلى حد كبير ، فى شكل ترجـمات ، وكان هذا الاهتمام نتيجة لسيطرة الوجود الأوروبي .